9
العار والنقاء والعنف

إذا كان العجز الذي تبدى في الحادي عشر من سبتمبر قد غذى إحساسا بالعار واستحث ردا عنيفا، فإن التهديد الثاني بالعار انبثق من الاشتباه بأن الحادي عشر من سبتمبر مرتبط بما فعله الأمريكيون (من سيئات) أو ما امتنعوا عن فعله (من صالحات). قال الكثيرون إن أمريكا أظهرت قدرا كبيرا من الضعف (انظر فقرة «أمريكا تتراخى» لاحقا)، بينما أشارت قلة إلى أنها بالغت في استعراض عدوانيتها وغالت في تشوقها للحرب والتدخل (انظر فقرة «مقاومة من يلومون أمريكا على الحادي عشر من سبتمبر»). التهديد الثالث بالعار ـ الذي ينبثق من الاستجابة العنيفة للحادي عشر من سبتمبر ـ سوف نتناوله في فقرة «مكافحة الإرهاب وتكاثر الأعداء».

أمريكا «تتراخى»: الضعف، والخصاء، والتلوث

أدت كوارث عديدة ـ شهدتها ثقافات متنوعة في مراحل زمنية مختلفة ــ إلى ظهور دعوات تطالب بالتفسيرات وما يرتبط بها من «تطهر» وعودة إلى النقاء. ولاحظ العالم الأنثروبولوجي تيم الن، اعتمادا على عمله الميداني في شمال أوغندا، أن كبار السن سعوا مرارا لتفسير النكبات والبلايا (مثلا: مرض يصيب جنديا سابقا) عبر ربطها بالسلوك المعادي للمجتمع في الماضي ــ أي بالمبادئ الأخلاقية التي عملوا على ترويجها[1]. في الحروب الأهلية الإفريقية، جرى امتداح التعفف عن ممارسة الجنس وتناول الكحول باعتباره يوفر مناعة للعنف[2]. في حضارة المايا القديمة في أمريكا الوسطى، استحث الجفاف إقامة طقوس شعائرية تشمل تشويه

الأعضاء التناسلية في محاولة على ما يبدو لتهدئة غضبة الآلهة وعودة المطر من جديد. في العصر الحديث، وجه النازيون انتقاداتهم الهجائية إلى النزعة المادية في ألمانيا وحملوها مسؤولية تحويل الوطن إلى بلد ضعيف وأنثوي ورخو و«برجوازي»[3]. وشدد كتاب مثل كلاوس ثيويليت على أن معظم جنود قوات العاصفة الأوائل كانوا من المعادين للقوى والجماعات ـ «الثورة»، «اليهود»، «الفساد»، حتى «النساء» ـ التي اعتبرت مسؤولة عن إضعاف قوة ورجولة وعزة ونقاء ألمانيا، وعبدت الطريق لإذلالها ومهانتها نتيجة معاهدة فرساي (1919). كتاب اومر بارتوف «مرايا الدمار»، يجلب الانتباه ـ عبر حجة ذات صلة بحجج ارندت وثيويليت ـ إلى الميل نحو توجيه اللوم على الكارثة العسكرية التي حلت بألمانيا في الحرب العالمية الأولى إلى أولئك الذين زعم أنهم أضعفوا المجهود الحربي وغدروا بالجنود الألمان. وفي الواقع، أدت الحاجة إلى تفسير ـ وتمجيد ـ المعاناة إلى تحويل الأعداء من جنود «هناك» إلى مدنيين «هنا»؛ من الجنود البريطانيين والفرنسيين إلى اليهود[4]. يشدد جيمس غيليغان وتوماس شيف على الروابط الجامعة بين «عار» ألمانيا في معاهدة فرساي والبحث عن كبش فداء بلغ ذروته في عمليات القتل الجماعي لليهود. وحتى في فرنسا، التي أصيبت هي أيضا بصدمة عميقة في الحرب العالمية الأولى، وجدت جماعات كبيرة من الناس أن من المغري الترحيب بالنازية كحل لحالات الضعف والتلوث والفساد الداخلية. ويلاحظ بارتوف أن الكثيرين في فرنسا المحتلة اعتبروا الاحتلال النازي توكيدا على الانحلال الأخلاقي الذي أصاب فرنسا وانجرافها نحو العلمانية، ووجدوا فيه ـ في الوقت ذاته ـ فرصة سانحة لعكس هذه التوجهات والنزعات عبر إقامة تحالف بين الكنيسة ورئيس نظام فيشي (الموالي للألمان) المارشال هنري بيتان[5].

بعد الحرب العالمية الثانية، استمرت الانقلابات العسكرية في تغذية مختلف أنواع «التطهر». في منتصف السبعينيات، شجعت حملات القصف العنيف التي شنتها الولايات المتحدة على كمبوديا على بحث منحرف وعنيف عن «النقاء والطهر»،

والتخلص من «الاستعمار» و«الإمبريالية» عبر قيام نظام الخمير الحمر باجتثاث السكان من المدن وقتل الفيتناميين، و«المتعاطفين» معهم، والجواسيس و«المتواطئين» المزعومين[6]. وبعد أن عانى الجيش الرواندي من «الإذلال والمهانة» نتيجة اتفاقية السلام في اروشا عام 1993، شجع البحث عن مصادر الضعف و«التلوث» على ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية في رواندا عام 1994 [7].

ظهرت توليفة فكرية قوية النفوذ في الولايات المتحدة أكدت على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت ـ جزئيا ـ نتيجة ضعف أمريكا وتهتكها وانغماسها في الملذات. الأمر الذي شجع نوعين مقلقين من رد الفعل أفرزا في نهاية المطاف نتائج عكسية. تمثل الأول في العدوانية تجاه مختلف أعداء الخارج. وجاء الثاني على شكل مضاعفة المسعى لـ«النقاء والطهر» و«إحياء مكارم الأخلاق» في الداخل: كأنما لإعادة إنعاش مجتمع تراخى ولان وأصبح عرضة للهجوم. ونزع الحزب الجمهوري واليمين الديني إلى تبني وجهة نظر فصامية (شيزوفرانية) للدولة، توجب عليها التدخل في الأخلاق الشخصية وتوجيهها بعيدا عن السوق (باستثناء الإنفاق الدفاعي). تعززت هذه المقاربة على ما يبدو نتيجة هجمات الحادي عشر من سبتمبر: لقد شجعت الحاجة إلى إعادة إنعاش وتنشيط «القيم الأمريكية» مزيدا من التدخل في الأخلاق الشخصية وفي الليبرالية الاقتصادية بدرجة أكبر، من خلال التخفيضات الضريبية على وجه الخصوص. لكن الإنفاق العمومي مال إلى الارتفاع ـ وفي هذا مفارقة واضحة ـ خصوصا الإنفاق على شؤون الدفاع.

تمثل جزء من إذلال ومهانة الحادي عشر من سبتمبر في الشعور بأن الولايات المتحدة لم تكن قوية، أو ذكورية فيه الكفاية، لمنع الهجمات عليها. أما الرأي القائل إن الرد الضعيف على الحادي عشر من سبتمبر سيغري بهجوم أسوأ فقد عبر عنه بعض المعلقين المتظاهرين بالليبرالية. ففي معرض التحذير من مغبة الفشل في تمييز الإرهابيين عن غير الإرهابيين، كتب الصحفي توماس فريدمان في «نيويورك

تايمز» بعد الحادي عشر من سبتمبر بوقت قصير: «إن عدم الرد بأسلوب شرس وضار على هذا الهجوم الذي استهدف شعبنا سوف يغري بشن هجوم أسوأ غدا ويؤدي إلى حرب بلا نهاية مع الإرهابيين»[8]. وبالنسبة للعديد من المسؤولين والمحللين، تطلبت الصورة الذهنية الذاتية للولايات المتحدة كقوة عظمى «عملا قاسيا وعنيفا». ومثلما قال نائب الرئيس ديك تشيني حين واجه الهجوم على أفغانستان مقاومة شديدة: «يجب أن نشجع التحالف الشمالي على احتلال كابول. نحن كقوة عظمى لا يجب أن تفشل»[9]. ومن المهم في دلالته أن بوش والعديد من أعضاء فريق الأمن القومي اعتبروا رد إدارة كلينتون على ابن لادن والإرهاب الدولي ضعيفا إلى حد أنه مثل دعوة فعلية لضرب الولايات المتحدة مرة أخرى. وكان انتقاد كلينتون حادا على نحو خاص فيما يتعلق بإطلاق ستة وستين صاروخا (من طراز كروز) على معسكرات التدريب التابعة لـ«القاعدة» في أفغانستان ردا على تفجير السفارتين الأمريكيتين في شرق إفريقيا عام [10] 1998. وعلق بوش قائلا بعد الحادي عشر من سبتمبر:

> إن فكرة إطلاق صاروخ «كروز» على خيمة عبارة عن دعابة بالفعل. أعني أن الناس يعتبرون ذلك [دليلا] على عجز أمريكا.. أسلوب لين، نوع من الكفاءة التقنية، لكن البلد الصلب لا يكتفي بإطلاق صاروخ من غواصة وانتهى الأمر. أعتقد جازما بأن هناك صورة ذهنية لأمريكا تقدمها بوصفها مغالية في المادية. في الانغماس في الملذات، وأننا شعب ليست له قيم، وحين نتعرض لضربة لا نستطيع الرد. من الواضح أن ابن لادن امتلأ بالجرأة والجسارة ولم يشعر بتهديد الولايات المتحدة[11].

سيكون هذا موضوعا ثابتا ومتكررا. في حزيران/ يونيو 2005، أبلغ بوش مجموعة من الجنود الأمريكيين في قاعدة «فورت براغ» (بولاية كارولينا الشمالية) بأن «الإرهابيين يعتقدون أن المجتمعات الحرة ينخر فيها الفساد والانحلال، وإنهم

ببضع ضربات قوية يستطيعون إجبارنا على التراجع»[12]. يشير هذا النوع من التحليل إلى اتجاه فكري أوسع نطاقا ظل سنوات عديدة يصور أمريكا الليبرالية دولة مترددة ولينة. في معرض الإشارة إلى عداء بول ولفوفيتز القديم لصدام حسين، لاحظ الأستاذ الجامعي ستيفن هولمز أن «غضب ولفوفيتز هو في الجوهر غضب على ضعف الليبرالية الأمريكية.. مصدر الوهن، ومنبع الفساد والانحلال، والنسبوية التي ظلت تعرض المجتمع الأمريكي للتآكل طيلة عقود من السنين»[13].

إذا أصبحت أمريكا «لينة ورخوة» و«متهتكة ومنغمسة في الملذات»، وفقدت «قيمها»، فإن المطلوب نوع من الإحياء الأخلاقي على ما يبدو لدرء مزيد من التهديدات في المستقبل. ولربما يشكل ذلك جزءا من تفسير سبب التشديد المتزايد على «القضايا الأخلاقية» ـ خصوصا معارضة الإجهاض وزواج المثليين ـ في انتخابات عام 2004، حيث أعيد انتخاب بوش بأغلبية مريحة، وقام اليمين الديني بتنظيم واستنهاض وحث الناخبين على دعمه وتأييده[14]. ويبدو أيضا أن المخاوف من أن تصبح أمريكا ضعيفة ومادية قد شجعت سياسة خارجية تتبنى ردة فعل عنيفة نبذت الشكوك حول القيم والنشاط والحيوية. قال نورمان ميلر عن أمريكا عام 2004: «أصبحنا أمة مذنبة. هنالك في مكان ما من الضمير الوطني المشوش، شعور بأننا محاصرون في شراك تناقض صغير بين حب المسيح يوم الأحد، والشهوة الشبقة للمال في بقية أيام الأسبوع. فكيف لا نكون بحاجة إلى من يخبرنا بأننا أخيار وأطهار، ويسعى لجعلنا آمنين؟». وتبعا لهذا المنطق، ربما نتوقع أن تعزز المصالح الاقتصادية في الحرب (النفط، السلاح) الحماس الشديد للأجندة الأخلاقية التي تنتحلها الذات. علاوة على ذلك، ومثلما لاحظ ميلر، لربما يحتاج بوش نفسه بعد أن تعافى من الإدمان على الكحول لمثل هذا الرداء الأخلاقي: «تحولت تقوى جورج بوش إلى مرهم معطر يغطي على روائح جنون السكر المكبوتة التي مازالت تهيج الجو داخل نفسه»[15].

لنقارن هذه الديناميات (المجتمعية أو الفردية) مع وصف قدمه المفكر السويسري المسلم طارق رمضان، للعملية التي تم من خلالها تجنيد الشباب المسلم في المنظمات الإرهابية:

> يقال للشباب: ما تفعلونه خطأ كله ـ تتركون الصلاة وتشربون الخمر، وتبتعدون عن الاعتدال والتواضع، وتخرجون على آداب السلوك. ويؤكد لهم أن السبيل الوحيد ليكونوا مسلمين صالحين هو العيش في مجتمع إسلامي. ونظرا لعدم قدرتهم على ذلك، يتعاظم إحساسهم بالعجز ويعانون من أزمة هوية. مثل هؤلاء الشباب هم فريسة سهلة لمن يأتي ويقول لهم: «هنالك سبيل لتطهير النفس». بل إن بعض التنظيمات تشجعهم على تناول المسكرات لزيادة شعورهم بالذنب وتسهيل استغلالهم وتجنيدهم[16].

وعلى نحو مشابه، يلاحظ الصحفي المحنك روبرت فيسك أن بعض المسلمين تمتعوا بالحريات والملذات في الغرب، لكنهم يشعرون بأن «الفساد» أصابهم نوعا ما جراء ذلك. وبالنسبة لقلة خطيرة منهم، تمثل الهجمات الإرهابية سبيلا لا للتخلص من هذا الشعور بالذنب فقط، بل للرد على المجتمع الذي «أفسدهم»[17]. إن جزءاً من إغراء العنف، كما فهم العديد من النازيين جيدا على ما يبدو، قد يكمن في عرض طوق النجاة من المادية والمفاسد اليومية لأوقات السلم.

اقترب بوش بين الحين والآخر من تصوير أحداث الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها فرصة سانحة للتجديد الأخلاقي وحتى الشخصي. في شباط / فبراير 2002، أعلن:

> لا يرغب أحد منا بأن تواجه أي دولة ما حدث في ذلك اليوم [9 /11]. لكن، مثلما هي حال حياة كل منا، يمكن للأحزان التي لا نختارها أن

> تكسبنا الحكمة والقوة بطريقة لا تستطيع أخرى تحقيقها. هذه الرؤية محورية بالنسبة للعديد من الأديان وبالتأكيد للدين الذي يجد الأمل والراحة في الصليب[18].

فكرة أن المعاناة الدنيوية تمثل نوعا من الرسالة أو الاستمالة الإلهية للأخلاق لها تاريخ طويل: في القرن التاسع عشر، فسر العديد من صناع الرأي العام البريطانيين المجاعة الكبرى التي عصفت بايرلندا، كآية تثبت رفض الله لقوانين الذرة في بريطانيا (التي اعتبرت معيقة لاستيراد المواد الغذائية)[19]؛ وفيما بعد، أسهم الرأي القائل إن فيروس عوز المناعة المكتسبة / الإيدز ينزل العقاب بالسلوك الذي لا يرضاه الله في التناقض والازدواجية والتأخير في معالجة الوباء[20].

فكرة المعاناة كوسيلة تصحيحية للزلات الأخلاقية محفورة في عمق نزعة قوية في الفكر الديني الأمريكي. حين لاحظ كليفورد لونغلي أن نموذج «الشعب المختار» مأخوذ من العهد القديم، كتب معلقا:

> متلازمة الشعب المختار، كما نعرّفها، تشير إلى أن الأمم التي يخضع تاريخها لذلك النمط سوف تمر بحلقة دائرية. الإيمان والإخلاص سيتبعهما التراخي والتهاون، ثم الوثنية والكفر (بالمعنى الديني على الأقل)؛ وسيؤدي ذلك إلى المعاناة والبلايا مع تدخل العناية الإلهية لتطبيق العقاب التصحيحي (هذا لا يجعل الله مسؤولا عن تسبيب النوائب والبلايا؛ فكل ما يفعله هو رفع حمايته). وسيأتي الأنبياء لتفسير ما حدث من أخطاء وذنوب وحث الشعب المختار على العودة إلى الطاعة السابقة؛ وحين يفعلون ذلك يعيدون الناس (أي ينقذونهم من العقاب) إلى حالة النعم الإلهية المباركة[21].

بالرغم من هذا السياق، يعتبر ربط بوش لأحداث الحادي عشر من سبتمبر مع

صورة أمريكا كدولة ضعيفة تفتقد القيم أمرا شاذا وغريبا من عدة جوانب. أولا، هذا يفترض، على شاكلة العديد من البيانات حول دوافع الإرهابيين، معرفة ما يدور في خلد أفراد جماعة على درجة كبيرة من المراوغة والغموض والتنوع (بعد كل هجوم إرهابي نسمع أن مسارا معينا للعمل ـ لا يفضله مروجوه ـ سوف «يعطي الإرهابيين ما يريدونه»[22].

هنالك جانب آخر للغرابة في تصريح بوش: كأنما الإرهابيين قد أصبحوا «الناطق» المعبر عن مخاوف وأهواء ونزعات بوش نفسه واليمين الديني عموما بما تتصف به من تعصب وتحيز. في واقع الأمر، ينسب إلى الإرهابيين بشكل غريب فضل التشخيص الصائب والدقيق لشرور وآفات المجتمع الأمريكي، والتشخيص ينسجم بشكل غريب أيضا مع القضايا الأخلاقية لسياسة «ردة الفعل العنيفة» كما شرحها توماس فرانك. ويبدو أن هذا التناغم، إلى حد ما على الأقل، يعكس نوعا من «التطابق الأخلاقي» بين الأصوليات الدينية المتنافسة، خصوصا في العداء المعلن تجاه البحث عن المتع الدنيوية: وكما لاحظ المحلل النفسي أوتو كيرنبرغ، تميل الإيديولوجيات الأصولية إلى عدم الاكتفاء بالتقسيم الحاد بين المؤمن والكافر فقط، بل إلى تبني مبادئ أخلاقية تقيد السلوك الجنسي للمختارين؛ العداء للعلمنة سمة أخرى مشتركة بينها[23]. المبشر الأمريكي جيري فالويل دفع مناورة بوش المبطنة مسافة أبعد حين صور أحداث الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها عقابا إلهيا على الإجهاض والمثلية والعلمنة[24] (تفسير ردد صداه بعض الزعماء الدينيين عام 2005 حين جرى تصوير إعصار كاترينا بأنه عقاب على الإجهاض واحتفال المثليين في نيو اورليانز الذي عطلته العاصفة)[25]. في الواقع، كان فالويل يصور الله والإرهابيين باعتبارهم يتكلمون بصوت واحد (وهو ما ادعاه الإرهابيون أنفسهم بشكل أكثر وضوحا ـ على سبيل المثال، حين قال ابن لادن إن الحادي عشر من سبتمبر هو ضربة أصاب بها الله أمريكا في مقتل من مقاتلها[26].

من المثير مقارنة الترحيب الذي أبداه عدد من الزعماء الكاثوليك في فرنسا للاحتلال النازي باعتباره سبيلا لوقف عملية فصل الكنيسة عن الدولة التي زعم أنها استمدت إلهامها من اليهود والماسونيين. علق و. د. هال قائلا: يبدو وكأن الله قد وقف إلى جانب النازيين من أجل تطهير فرنسا[27]. ومن اللافت أن الدراسة الكلاسيكية التي أعدها ريتشارد هوفستادتر عام 1965 حول ذهان الارتياب في السياسة الأمريكية قد لاحظت وجود «مفارقة جوهرية في الذهان الارتيابي تتمثل في محاكاة العدو» ـ أعضاء منظمة «كوكلوكس كلان» العنصرية يرتدون أثواب الرهبان ويمارسون طقوسا شعائرية معقدة ويتبنون تراتبيات متقنة؛ وأعضاء «جمعية جون بيرش» يقلدون أعداءهم الشيوعيين عبر جماعات «الواجهة» والتشبث بالحرب الإيديولوجية التي لا تعرف الرحمة[28].

الشذوذ الثالث في محاولة بوش دحض وعكس الصورة التي رسمها المهاجمون لأمريكا أنها تتناقض تناقضا حادا مع تشديده على الحاجة للاستقلالية ـ إصراره (كما لاحظنا في الفصل الثامن) على أن «أسامة بن لادن لا يقرر كيف نداقع عن أنفسنا». لكن ما يكمن ضمنا في عمل بوش العلاجي/ التقويمي هو أن ابن لادن يقرر فعلا جزءاً مهما من الرد: في الحقيقة، تمارس نظرة الإرهابيين المفترضة للعالم تأثيرا نافذا لا في السياسة الخارجية الأمريكية (التي تزداد عدوانية باطراد) فقط، بل في جدول الأعمال الذي تتبناه الحكومة على الصعيد المحلي أيضا (الإصلاح الأخلاقي).

من الواضح أن رأي القس فالويل مرتبط بوجهة النظر الشائعة في المسيحية التي تؤكد أن الله كلي القدرة وكلي العلم: لا يمكن للأحداث أن تحدث بدون علمه أو إرادته، وتفلت من ثوابه وعقابه. وضمن هذا الإطار، تحمل كوارث ونكبات مثل الحادي عشر من سبتمبر تهديدا كامنا بالعار، نظرا لأن من الطبيعي أن يسأل

الناس: عقاب على أي ذنب؟ يضاف إلى هذا التهديد بالعار التقليد التراثي البروتستانتي الذي يميل إلى اعتبار الازدهار (الاقتصادي) علامة دالة على الفضيلة[29] فالعديد من الأمريكيين يعتبرون القوة والثروة الواضحة في «أرض الله» آية تثبت رضاه وفضله ونعمته وتأييده. بعد وقت قصير من اعتلاء بوش الرئاسة، رفض السكرتير الصحفي للبيت الأبيض اري فليتشر الدعوات للسائقين لتخفيض استهلاك الوقود، قائلا: «يعتقد الرئيس أن هذا هو أسلوب الحياة الأمريكية.. أسلوب الحياة الأمريكية مبارك»[30]. وبحسب تعبير كليفورد لونغلي في دراسته «الشعب المختار»، فإن «الأمة التي تتمتع بالنجاح يمكن بسهولة أن تقنع نفسها بأنها ترتع في نعم الله وخيراته»[31]. ووفقا للمنطق ذاته، يمكن للهجوم على القوة والثروة البادية للعيان أن يستحضر الفكرة المهددة بأن الله لم يعد راضيا على الشعب الفاضل والمختار. وبالتالي، يجب الحفاظ على القوة والثروة لا لفوائدها فقط بل كعلامة على استمرارية رضى الله على عباده.

في تفسير بوش لآراء الإرهابيين حول أمريكا، ينبهنا استخدامه لكلمتي «العجز» و«التراخي» لكي نقلق من أن الولايات المتحدة لم تعد ذكورية أو رجولية بما فيه الكفاية. وبدا بوش أنه يستحضر لغة أزمة منتصف العمر حين «أعرب عن قلقه من أن الولايات المتحدة قد فقدت تفوقها وأفضليتها»[32] ولربما يكون من المهم في دلالته أن بوش فضل استعمال لغة الفحولة الجسورة (بنكهة إسبانية غالبا) حين يمتدح أصدقاءه. فقد أبلغ مساعد بلير الستير كامبل: «رجلك يمتلك فحولة جسورة»*[33] وفي بعض الأحيان دعا اريل شارون «تورو» أو «الثور»[34]ولربما شعر هو حاشيته بالحاجة إلى إظهار الصلابة ونفي الضعف الداخلي: أولئك الذين استطاعوا التهرب من الخدمة العسكرية في فيتنام، مثل جورج بوش وجون اشكروفت وريتشارد بيرل وديك تشيني، هم من الشخصيات النافذة التي وصفها الكاتب المسرحي ديفيد هير بالقول: «رجال على استعداد لإرسال الآخرين

لفعل ما لم ولن يفعلوه هم أنفسهم»[35]. وظهر بكل جلاء ارتباك وحرج هؤلاء «الصقور الرعاديد» في هجمات الجمهوريين على سجل شخص بدا بوضوح لا لبس فيه أنه اختار المشاركة في الحرب الفيتنامية: جون كيري[36]. وعند المقارنة بين وش وكيري، لاحظ نورمان ميلر بأسلوب جامع بليغ أن «بوش ممثل أكثر شطارة. فقد انتحل شخصية أكثر رجولة منه طيلة العديد من السنين»[37]. وإذا أمكن لهذه الفحولة الذكورية كلها أن توظف للدفاع عن النساء المضطهدات في أفغانستان (وتلك أولوية منشطة، وإن مفاجئة، بالنسبة للجمهوريين) فلا بأس في ذلك.

ليس من الصعب رؤية التوكيد والتشديد على الفضائل «الذكورية» في العديد من الاستجابات الأخرى للحادي عشر من سبتمبر. على سبيل المثال، أصبح ديفيد هالبرستام، أبرز منتقدي حرب فيتنام، مداحا لـ«ذكورية المجتمع الأمريكي واستعراضه لعضلاته»: «لا يمكن أبدا التقليل من شأن قوانا، حين تستحضر وتركز، حين يستثار جسد السياسة ويوصل بالعملية السياسية»[38]. وبالمقابل، فإن أولئك الذين عارضوا حرب العراق كثيرا ما تعرضوا للسخرية والهزء باعتبارهم يفتقدون الرجولة. عشية الحرب، علق تيموثي آش قائلا:

من السهل إيجاز النمط الراهن للأوروبيين: جبناء. فهم ضعاف، نكدون، منافقون، متفرقون، مراؤون، معادون للسامية حينا ومعادون لأمريكا ويحاولون استرضاءها أحيانا.. ينفقون أموالهم على الخمر، والعطلات، ودولة الرعاية الاجتماعية المتورمة بدلا من الإنفاق على الدفاع.. وإذا اعتبر الأوروبيون المعادون لأمريكا «الأمريكيين» رعاة بقر مستأسدين، فإن الأمريكيين المعادين لأوروبا يرون «الأوروبيين» مخنثين وأشباه رجال. الأمريكي رجل مليء بالفحولة، والأوروبي أنثى، أو عنين، أو مخصي.. الخصيان، كما اكتشفتُ، كلمة تدل على الأوروبيين[39].

في حين قد يكون في هذا التقسيم الكثير من المبالغة، إلا أنه يعكس بالتأكيد العبارة الشائعة التي قالها روبرت كيغن: «الأمريكيون من المريخ، والأوروبيون من الزهرة»[40] وضمن هذا الإطار، تعتبر وزارة الخارجية، التي يجدها الكثير من اليمينيين مغالية في حذرها فيما يتعلق بحروب مكافحة الإرهاب، «مخفر أمامي للزهرة»[41]، بينما اعتبر توني بلير في واشنطن استثناء متألقا للقاعدة التي تؤكد أن الأوروبيين جبناء رعاديد[42]. أما السخرية من الديمقراطيين بوصفهم مخنثين فكانت منعكسا استخدم مدة طويلة. في كتابه «الإتاحة اللامحدودة»، أشار غاري الدريتش (عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي المعين في البيت الأبيض خلال ولاية كلينتون) إلى رجال الرئيس باعتبارهم «فتيات»، والعبارة المبتذلة توسعت لتشمل الليبراليين الذين لم يتمكنوا من فهم لماذا حدثت هجمات الحادي عشر من سبتمبر مع أنهم على هذه الدرجة من «اللطف والرقة» مع الإرهابيين[43]. بالنسبة لفريق كلينتون، قال ملاحظا:

> هنالك خاصية ثنائية الجنس تميز موظفي كلينتون عن موظفي إدارة بوش [الأب] تبدت مثلا في شكل أجسامهم. في إدارة كلينتون، بهتت الخطوط الفاصلة بين الجنسين، حيث ترتدي النساء، بمناكبهن العريضة، السراويل، في حين أخذت أجساد الرجال شكل الأجاصة الأنثوي. كنت قبل ذلك معتادا على الأجساد الرياضية، على الرجال المتمتعين باللياقة البدنية، الذين يتباهون بعضلاتهم المفتولة وصحتهم السليمة[44].

وفقا لهذا الرأي، أضعفت الليبرالية حتى أسس التمايزات التقليدية الجندرية (تبعا للنوع الاجتماعي) بين الجنسين. وهي مشكلة استقطبت اهتماما خاصا نتيجة زواج المثليين. وبالطبع، واجه كلينتون عاصفة سياسية حين حاول رفع الحظر

المفروض منذ مدة طويلة على تجنيد المثليين في الجيش الأمريكي. ومهما كانت الحقيقة حول كلينتون (ويبدو أنه فعل ما بوسعه ـ تحت الطاولة ـ لتوكيد رجولته)، فإن بوش يبدو قد انحاز كلية إلى معسكر المتباهين بأجسادهم الرجولية الرياضية. على المستوى الشخصي، يستحضر كتاب بوب ودوارد «بوش في الحرب» اهتمام الرئيس وانشغاله بقدرته الجسدية: «أرفع في أحد التمارين ثقلا وزنه 92 كغ». ويضيف بحماسة صبيانية: «أليس هذا أثقل حمل استطاع رئيس [أمريكي] رفعه؟»[45]. ومن يستطيع أن ينسى مشهد انتقال بوش بسهولة من ضرب الأشرار إلى ضرب كرات الغولف في فيلم مايكل مور «فهرنهايت» 9 /11 «أدعو الأمم جميعا لتبذل قصارى جهدها لإيقاف هؤلاء القتلة الإرهابيين عند حدهم ـ الآن راقبوا هذه الضربة!». في تلك الأثناء في لندن، اهتم زملاء بوش من لاعبي الغولف ومساعديهم بالحفاظ على لياقة أجسامهم. وواظب توني بلير على ممارسة التمارين الرياضية وأنظمة الحمية الغذائية[46]. بينما كان مساعده الستير كامبل يتدرب للمشاركة في سباق لندن للماراثون[47]. وفي حين أن فريق بوش استخدم التشبيهات المجازية الرياضية لوصف الحرب[48]، فإن فريق بلير انشغل باستعمال تشبيهات الحرب المجازية لوصف الرياضة[49].

ضاهى هذه الفحولة الذكورية دافع لإخصاء العدو. وبدا أن بعض اللغة المحيطة بالحادي عشر من سبتمبر مصممة لنفي أي ادعاء بالرجولة التقليدية عن المهاجمين، كما حدث حين وسموا بـ«الجبناء»، أو حين ذكرت مجلة «ناشيونال انكوايرر» أن «إرهابي مركز التجارة العالمية محمد عطا وعددا من زملائه الملاعين مارسوا الشذوذ الجنسي في السر سنين طويلة»[50]. ومن غير المفاجئ أن تكون الثقافة السائدة بين الجنود الأمريكيين في العراق ذكورية إلى حد التطرف[51]. واستخدمت المجندات الأمريكيات في العراق وأفغانستان لإذلال وإهانة الأسرى الرجال (وصورت إحداهن تفعل ذلك في «أبو غريب»)؛ ويشير الن فيلدمان بطريقة

يحاول إضفاء المعقولية عليها إلى أن ذلك مصمم خصيصا لاستخلاص الهوية الذكورية والقوة الجنسية من «الإرهابيين» العراقيين ونقلهما إلى الجنود الأمريكيين (الرجال)[52]. وهذا لا يقتصر على استغلال المعايير الثقافية الإسلامية فقط؛ بل يتعلق أيضا بالشعور بانعدام الأمان لدى الجنود الغربيين أيضا، الذي يعكس ما يتعرضون له من استئساد وإهانات خلال التدريب العسكري. ومثلما لاحظ اريك هوفر ذات مرة: «يمكن أن تكتشف أشد ما يخوف عدوك عبر مراقبة الوسائل التي يستخدمها لتخويفك». في تشرين الأول/ أكتوبر 2005، ذكر برنامج التحقيقات الأسترالي «ديتلاين» أن الجنود الأمريكيين في أفغانستان وجهوا جثتي مقاتلين من طالبان نحو القبلة وأحرقوهما، قبل أن يعلنوا عبر مكبرات الصوت باللهجة المحلية:

> انتباه! أنتم كلاب جبناء يا طالبان. تقبلون بأن يمدد مقاتلوكم باتجاه القبلة ويحرقون. تخافون من أن تأتوا وتستعيدوا جثتيهما. هذا يثبت أنكم نساء كما اعتقدنا دوما[53].

مخاوف بوش من اعتبار الولايات المتحدة عاجزة ومتراخية يمكن رؤيتها أيضا في سياق مخاوف أوسع نطاقا داخل البلاد، متمحورة حول فكرة الخصاء[54]. وعبر عنها بأقوى أسلوب اليمين المتطرف. في «يوميات تيرنر»، وهو كتاب يبدو أنه وضع المخطط التفصيلي لتفجيرات اوكلاهوما عام 1995 [55]، صورت الحكومة الليبرالية باعتبارها تتوقع خضوعا «أنثويا» و«طفوليا»[56] أما المؤلف وليام بيرس، فقد اعتنق نسخة عنصرية من الأصولية المسيحية، التي أثرت في منفذ التفجيرات تيموثي مكفي والميليشيات المسيحية في الولايات المتحدة. يلاحظ مارك يورغنزماير، في دراسته المقارنة للإرهاب والأصولية الدينية، أن هذه الميليشيات المسيحية قد أحدقت بها:

> مخاوف لا من العُنة فقط، بل من دور الحكومة في عملية الخصاء أيضا. لذلك عمل الرجال الذين شعروا بهذه المخاوف على حماية

أنفسهم، لا من خلال وضع دفاعات محتجبة ضد تهديدات النساء القويات والرجال المخنثين وحسب، بل عبر محاولة إعادة التوكيد على السيطرة على عالم شعروا بأنه انحرف أخلاقيا وسياسيا[57].

يرى يورغنزماير أن هذه المخاوف تؤجج التطرف لدى جماعات متنوعة ومختلفة: بدءا بالميليشيات المسيحية في الولايات المتحدة، وانتهاء بالمتطرفين القوميين الهندوس في الهند. وبالنسبة لإحدى جماعات الضغط النافذة في الولايات المتحدة، تعتبر حيازة السلاح حرية ديمقراطية مهمة، وتجريد الناس من الأسلحة يعد من قبل اليمين المتطرف تهديدا للرجولة، بل تمهيدا لإخضاع الشعب الأمريكي لدولة مستبدة أو تدخلية[58]. بالنسبة لهذه الشريحة من الناخبين، يبدو إغراء وجود حكومة «ذكورية» شرسة في ميدان السياسة الخارجية، تقاوم «التأنيث» المتأصل في الليبرالية، شديد الجاذبية.

فيما يتعلق بالكادر الوظيفي، تبقى ساحة السياسة الخارجية حكرا على الرجال. فهم يشكلون الأغلبية الساحقة من العاملين والمشاركين في المؤسسات الاستشارية الحسنة التنظيم واليمينية التوجه في الولايات المتحدة، التي ساعدت في صياغة وشرعنة سياستها الخارجية الجديدة والراديكالية[59]. وهذا يصدق أيضا على المؤسسات الاستشارية النافذة في بريطانيا، مثل المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية (حيث كنت أعمل). أما بالنسبة للنساء اللاتي يحاولن العمل في (وربما لإصلاح حال) مناخ رسمي يهيمن عليه الرجال، وأحيانا الفحولة الذكورية، حيث يعتبر «الضعف» شبهة، فقد كان من الصعب عليهن تقديم بديل واضح أو رؤية غير حربية. ومع أن هانز بليكس رئيس فريق التفتيش عن الأسلحة امتدح كوندوليزا رايس، أقوى امرأة في إدارة بوش، بسبب مقاربتها الصريحة والمباشرة لأسلحة الدمار الشامل، إلا أنها أيدت الحرب على العراق. ولا يبدو أن تفاصيل حياتها

المهينة والشخصية ـ إطلاق اسمها على ناقلة نفط بحمولة 136 ألف طن تكريما لها، وتحديها تيم هينان البريطاني في لعب التنس ـ توحي بأنها تحاول بفاعلية النأي بنفسها عن ثقافة الرجولة.

وصف بيتر ستوثارد لبلير وحاشيته يملأ النفس بشعور مغث تجاه مجموعة من الصبيان يتحدثون بسعادة غامرة عن كرة القدم والتكتيكات الحربية، بينما تسمع في الخلفية بعض عبارات الانزعاج ونفاذ الصبر تطلقها وزيرة التنمية كلير شورت ذات الشخصية الأمومية. حيث وصفها ستوثارد بأنها تحظى «بموقع غير رسمي باعتبارها ضمير الحزب»[60]. وإذا كان الوصف صحيحا، فإنه على ما يبدو يحرر الآخرين (وغالبيتهم من الرجال) من المسؤولية بأسلوب غريب. وحتى شورت رفضت عالم التعاطف «اللين» حين استنكرت دعوات منظمات الغوث إلى وقف قصف أفغانستان لفترة محدودة لإتاحة إيتاء المعونات الإنسانية، بوصفها (الدعوات) «عاطفية انفعالية»[61]. لقد شاع مساواة السلم باللين والتراخي في وسائل الإعلام البريطانية في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. وبعد الهجمات، رسم بوللي توينبي، وهو صحفي بريطاني بارز وثاقب البصيرة (ربما يتوقع المرء منه تجنب مثل هذه اللغة التحريضية والمثقلة بالحمولة الجنسية)، فارقا مميزا بين «الليبراليين المتراخين» الذين لن يدافعوا عن أعمق القيم وبين «الليبراليين الأشداء» الذين «يعتبرون حقوق الإنسان الأساسية غير قابلة للتفاوض وتستحق القتال من أجلها»[62]. ومثلما يلاحظ جيمس غيليغان، فإن العنف يصبح مرجحا حين يعتبر اللاعنف أسلوب المخنثين وبالتالي عارا يجلب الخزي[63].

مقاومة من «يلومون أمريكا» على الحادي عشر من سبتمبر

عند النهاية المقابلة من الطيف السياسي لتفسير القس فالويل لهجمات الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها تصحيحا للأخلاق، يقف أولئك الذين يشددون على أن

الولايات المتحدة صنعت وكثّرت أعداءها نتيجة سياستها الخارجية العدوانية. فقد زعم بعضهم أن الإرهاب هو عقاب، وأثاروا بالتالي سؤالا يستحيل طمسه ومحوه كلية من الوعي: عقاب على أي ذنب؟ نعرف من دراسات الكوارث، مثل الحروب والمجاعات، أن الضحايا يلومون أنفسهم غالبا. يعتبر ذلك، من جوانب عديدة، تنويعا على مبدأ «الاعتقاد بعدالة العالم» الذي ناقشناه في الفصل السابع: الاعتقاد بأن العقاب يقتضي ضمنا وجود جريمة[64]. وثمة بديل واضح لانتقاد الذات وعار المسؤولية هو توجيه إصبع الاتهام إلى الآخرين ـ بكلمات أخرى، لومهم على العار، بأسلوب عنيف ربما.

بدءاً من عام 1996، أعطى ابن لادن بشكل متسق ثلاثة أسباب لمهاجمة الولايات المتحدة: التواجد العسكري الأمريكي في السعودية؛ دعم الولايات المتحدة لإسرائيل / «الصهاينة» / «اليهود»؛ مهاجمة العراق عام 1991 وقصفه وتجويع شعبه لاحقا. وأضاف بعد ذلك الهجوم على أفغانستان عام 2001، وغزو العراق عام 2003 [65]. وفي الحقيقة يتطلب هذا التحليل (= لوم «الآخر») أخذه على محمل الجد، فهو يحمل بوضوح نوعا من التهديد بإلحاق العار بالغرب. لقد كان من الأكثر قبولا توجيه اللوم ببساطة إلى «شر» خارجي مستطير وتحميله مسؤولية الكارثة برمتها ـ مثلما ربط بلير تفجيرات لندن عام 2005مع «إيديولوجية شريرة» ـ وإلصاق تهمة العدو الداخلي أو المتعاطف مع الإرهابيين بكل من يضع هذا التفسير التبسيطي موضع المساءلة.

أدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر فعلا إلى ظهور قدر معين من تفحص الذات فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وذلك مع شعور بعض الأمريكيين بباعث يستحثهم على التساؤل عما فعلوه ـ كأمة ـ بحيث عجل أو استفز مثل هذا الهجوم الغادر الأثيم. بعد الهجمات مباشرة، بلغت الروائية باربرا كينغزولفر حد تسليط الضوء على أوجه الشبه بين «نحن» و«هم»:

> قبل عشر سنين، في وقت مبكر من صباح أحد أيام يناير، أمطرت السماء قنابل على مدينة بغداد فسوّت مبانيها بالأرض ـ فنادق، مشافي، قصور، أبنية فيها جنود وأمهات ـ وهنا، في المكان الذي أريد عشقه، كان علي مشاهدة الناس يهللون لما حدث. في بغداد، لوح الناجون بقبضاتهم وقالوا كلمة «شر»[66].

لكن حتى المفكرين الليبراليين وجدوا صعوبة بالغة في الإصغاء لرسالة كينغزولفر[67]، وأي انتقادات للسياسة الخارجية الأمريكية كانت تستدعي رد فعل عدائي. يتذكر مايكل مور الآن كيف قام ناشر روايته الرائجة «رجال بيض بله» بعد الحادي عشر من سبتمبر بإخفاء الكتاب (الذي ينتقد السياسة الخارجية الأمريكية). أما موقع الجمعية التربوية الوطنية، أكبر اتحاد للمدرسين في أمريكا، على الويب «في ذكرى الحادي عشر من سبتمبر»، فقد أدين على نطاق واسع بسبب مقاربة «توجيه اللوم إلى أمريكا» التي زُعم أنه تبناها؛ وكتب جورج ويل في صحيفة «واشنطن بوست» يقول إن الموقع أظهر «تهوسا صحيحا من الناحية السياسية بالتنوع، وبخطايا أمريكا، وكان مرعبا، بطريقته، كأي تهديد خارجي»[68]. وأشار ديفيد هوروفيتز، الذي كان ماركسيا في الستينيات، إلى أن «من يصفون أنفسهم بالتقدميين» قد تحالفوا مع «الفاشيين العرب والمتعصبين الإسلاميين في حربهم ضد أمريكا والغرب» ـ وتلك على ما يظهر «نسخة محدثة من الوفاق النازي ـ السوفييتي»[69]. وأضاف إن الحادي عشر من سبتمبر والحرب ضد العراق وفرا فرصة لظهور حركة راديكالية «أجندتها الدائمة الحرب ضد أمريكا وهيمنتها العولمية»[70]، وإن الهجمات على الإدارة أعطت التشجيع للقوى الإرهابية[71]. وفي كتيبه المعنون «فن الحرب السياسية» الذي وزع على الأعضاء الجمهوريين في الكونغرس خلال انتخابات عام 2000، قدم هوروفيتز الحجة على أن «السياسة حرب تمارس بوسائل أخرى»[72]. أما شيلدون رامبتون وجون ستوبر فقد أشارا إلى أن

ذلك يجعل الحرب هي المعيار؛ وحين تصبح الحرب هي المعيار، لن تعود هناك حاجة للانشغال بسؤال هل نشعل حربا أم لا[73].

على وجه العموم، جعلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الوعي بالذات أقل (وليس أكثر) احتمالا، وأظهرت أن العديد من الأمريكيين اعتبروا أنفسهم ضحايا في غالبيتهم الساحقة. وأي مشاعر أولية بأن العار لحق بالسياسة الخارجية ـ أو أي محاولة للتعبير عن هذه المشاعر ـ تعرضت بسرعة للكبت والقمع لصالح التركيز على «الآخر الشرير». ومن المهم في دلالته ربط العالم النفساني جيمس غيليغان العنف لا بتهديد العار فقط بل بالعجز عن التعبير عن الشعور بالعار أو الشك الذاتي أيضا (شيء يمكن تمييزه أكثر لدى الرجال، الجنس الأشد عنفا في أغلبيتهم الساحقة)؛ ومع بعض الاستثناءات المهمة، يبدو أن العجز عن التعبير عن العار أو الشك بالذات أو عدم الرغبة في ذلك شكلا معلما بارزا للخطاب العام والجدل العمومي في الولايات المتحدة.

تفسير فالويل للحادي عشر من سبتمبر باعتباره علامة على غضب الله على أمريكا أوقعه في مشكلة عويصة واضطر إلى التراجع؛ فقد تبين أن التشديد على «شر» خارجي يحظى بقبول أكثر. ومن وجهة نظر مسيحية، لربما يخدم ذلك إعفاء الله من المسؤولية، وبالتوسع، تخليص الأمريكيين من عار استفزاز غضبه. «الشر» يستحضر الشيطان، ومثلما لاحظ الفيلسوف ليسليك كولاكوفسكي (مؤلف كتاب «أحاديث مع الشيطان»)، فإن «الشيطان يخدم هدف تحديد ماهية الشر، وأصبح كيانا مسؤولا عن الشر لرفع المسؤولية عن الله وعن أنفسنا. تلك كانت وظيفة الشيطان في التاريخ»[74].

ساعد على تجنب أي تفحص حقيقي للذات التوكيد المتكرر على أن المهاجمين تملؤهم الغيرة أو الخشية من «أسلوبنا» في الحياة، كما أبلغ بوش الكونغرس في

العشرين من أيلول/ سبتمبر 2001: «يكرهون حرياتنا ـ حريتنا الدينية، حريتنا في الكلام، حريتنا في التصويت والتجمع والاختلاف مع بعضنا بعضا». بكلمات أخرى، جرى ربط العنف بالفضائل الأمريكية لا بالرذائل الأمريكية. مرة أخرى يتبدى تناقض صارخ بين العجز عن العثور على العدو، والاستعداد للزعم بامتلاك معرفة تفصيلية بأهداف العدو وكراهيته ودوافعه.

إذا أصاب سولجنتسين في أن «الخط الفاصل بين الخير والشر يخترق قلب كل كائن بشري»، فإن محاولة عزل المجموعة الشريرة والقضاء عليها ليس لها معنى منطقي بل معنى نفسي: فهي تساعد على درء تهديد العار[75]. والأشد تهديدا كما يبدو وجود أي صدى لرسالة كينغزولفر بأن في الإرهابيين شيئا مشتركا «معنا»، وهي فكرة رفضها رمسفيلد بشدة في تعليقه على الحادي عشر من سبتمبر: «في استهداف هذا المكان، وأولئك الذين عملوا هنا، أصاب المهاجمون الأشرار في استشعار حقيقة أن من أقاموا هنا يشكلون النقيض لهم ولكل ما يمثلونه». لكن هذا الإحساس بالإرهابيين باعتبارهم النقيض المقابل لنا ينزع إلى تدمير احتمال فهم دوافع وبواعث الإرهابيين، لأنه ـ بالضبط ـ «يستثنينا» من الصورة. أولا، يستثني أفعالنا التاريخية الماضية، بما فيها تأثيرات التدخلات العسكرية مدة طويلة من الزمن، والدعم الغربي للأنظمة القمعية التعسفية على مختلف أنواعها؛ ونتيجة لذلك، وضعنا غالبا في موقع لا يمكننا من فهم عملية صيرورة الإرهابي. ثانيا، التوكيد على أن الإرهاب هو النقيض الكلي يميل إلى إقصاء وعينا وإدراكنا لردود أفعالنا العنيفة على الشعور بأننا ضحايا، الأمر الذي يمكن أن يجعلنا نعرف الكثير عن الأسباب التي تدفع البشر الآخرين (الإرهابيين في هذه الحالة) إلى اللجوء للعنف. لنلاحظ أن الإرهابي ـ مثل الذي يكافح الإرهاب ـ لا يستجيب عادة لشعوره هو بأنه ضحية فقط، بل للضحايا الذين يعرف (ويتلقى التشجيع غالبا على معرفة) أن معاناتهم مذلة ومهينة ولا تحتمل.

يقولون: إن التاريخ يكتبه المنتصرون؛ لكن يبدو أن من يتذكره بشكل أفضل هم المهزومون. للولايات المتحدة وحليفتها الرئيسة بريطانيا تراث طويل من عدم الاعتراف بالضرر الذي أحدثته سياستهما الخارجية. ليس من السهل ربط فظائع الحادي عشر من سبتمبر بالانتهاكات السابقة التي ارتكبتها الولايات المتحدة. لكن المشاعر المعادية لأمريكا تأججت بدون شك نتيجة نمط تخريبي من الدعم غير المشروط لإسرائيل. ثم هنالك الدعم الغربي لعدد من الأنظمة الاستبدادية، خصوصا في العالم العربي.. وكثيرا ما أدى ذلك إلى أن يصبح المسجد المكان الوحيد الذي يمكن فيه للناس التعبير عن غضبهم وسخطهم ومعارضتهم. والمثال التقليدي في هذا السياق تجسده إيران، حيث أسقط الانقلاب الذي دعمته وكالة المخابرات المركزية (CIA) عام 1953 حكومة منتخبة ديمقراطيا أممت الصناعة النفطية؛ ومهد الانقلاب لعقدين من السنين من الحكم الديكتاتوري الشاهنشاي، وساعد بالتالي على تعبيد الطريق لثورة الخميني الإسلامية[76]. ومن الطبيعي أن إدانات الولايات المتحدة لانتهاكات حقوق الإنسان لا تصدر الرنة الفاضلة ذاتها حين تسمع في البلدان التي دعمت فيها الولايات المتحدة العنف والديكتاتورية.

ومثلما أشار نعوم تشومسكي، فإن أعمال الولايات المتحدة الإرهابية لا تعد إرهابا بل «مكافحة للإرهاب» أو حتى «حربا عادلة»[77]. وتاريخها في قتل المدنيين يشمل إلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناغازاكي ـ الاستخدام الوحيد حتى الآن للسلاح الذري في الحرب. كما يشمل الحرب الفيتنامية، حيث قتل حوالي 5,1 مليون فيتنامي، إضافة إلى قصف مناطق شاسعة من كمبوديا (وهذا غُيب عموما عن الذاكرة الأمريكية بسبب فظائع الخمير الحمر، التي نتجت بدورها ـ جزئيا ـ عن الجنون الجماعي الذي استحثه القصف الأمريكي). وبعد فيتنام، يبدو أن الانشغال المبالغ فيه بتجنب الخسائر الأمريكية في الأرواح قد غذى توكيدا جديدا على النشاط الإرهابي الذي رعته الولايات المتحدة (قتل المدنيين لنشر الرعب) في بلدان

جنوب إفريقيا ثم في أمريكا الوسطى[78]. كما اتخذ قتل المدنيين شكل تأجيج الحروب والإبادة الجماعية في أمريكا الوسطى: حيث يشار إليها أحيانا، بأسلوب يكشف الكثير، باسم: «الصراع ذو الدرجة المنخفضة من الحدة». لا يتذكر معظم المواطنين الأمريكيين دعم حكومتهم قمع تركيا لسكانها الأكراد، وسوهارتو (في إندونيسيا)، وموبوتو (في الكونغو)، وسياد بري (في الصومال)، وصمويل دو (في ليبيريا).. الخ. صادرات الأسلحة الأمريكية تمثل حوالي نصف صادرات العالم من السلاح[79]. كما أن لدى الولايات المتحدة مخزونا ضخما من أسلحة الدمار الشامل.

لنفكر أيضا بقصة أفغانستان ـ التي تشكل «نقطة عمياء» أخرى. فبالرغم من صدور عدد من التقارير التي كشفت القصة في وسائل الإعلام، إلا أن قلة من الناس (نسبيا) في الغرب تعرف كيف أججت الولايات المتحدة نار الإرهاب عبر أسلوبها في التدخل في (والانسحاب من) أفغانستان في الثمانينيات. فقد أدت مساعدة المجاهدين على قتال الاتحاد السوفييتي إلى تشكل جماعات ناشطة ثبت فيما بعد أنها تمثل مصدر مهما للإرهاب، خصوصا نتيجة الغضب الذي فجره انسحاب الغرب من أفغانستان حين ناشد شعبها العالم مساعدته على إعادة الإعمار. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد تسللت إلى مراكز التدريب التابعة للمجاهدين ومعسكرات اللاجئين المرتبطة بها داخل باكستان وزودتها بكميات ضخمة من الأسلحة الخفيفة، تحول معظمها إلى السوق الباكستانية. وكانت الشاحنات المحملة بالسلاح إلى أفغانستان تعود محملة بالهيروين، واستخدمت تجارة المخدرات الوليدة (والقائمة على الأفيون أساسا) من قبل المجاهدين كـ«ضريبة ثورية» ساعدت على استدامة الكفاح ضد الاتحاد السوفييتي إضافة إلى الأنشطة الجهادية اللاحقة[80]. وعلى شاكلة غزو العراق عام 2003، قدمت استراتيجية الولايات المتحدة القديمة في أفغانستان بشكل غريب باعتبارها «عديمة التكلفة»: الجهاد الأفغاني ضد السوفييت كان، كما أشار غيلز كيبل، جذابا على نحو خاص بالنسبة للحكومة الأمريكية، لأن

«الجهاديين سيخوضون المعركة ضد الاتحاد السوفييتي، موفرين العناء على الجنود الأمريكيين، بينما تدفع بلدان الخليج النفطية الفاتورة، موفرة المال على دافعي الضرائب الأمريكيين»[81]. واعتبرت الحرب الأفغانية أيضا منفذا يفرغ طاقات الناشطين الإسلاميين المتطرفين (السنة) الذين شكلوا تهديدا لدول الخليج المحافظة والمدعومة من قبل الولايات المتحدة.

في عام 1989 أجبر السوفييت على الانسحاب من أفغانستان. كانت الشيوعية تنهار، وتوفي الخميني في العام نفسه؛ في هذه الظروف، أعيد بسرعة تعريف الأعداء. وتم التخلي لا عن الجهاد الأفغاني فقط بل عن أفغانستان ذاتها وذلك مع وقوعها تحت سيطرة أمراء الحرب حسب الأسلوب السائد في أعقاب الحرب الباردة.[82]. أما إهمال اللاجئين الأفغان فأسهم في نجاح الطالبان، خصوصا وأن العديد من أفقر أسر اللاجئين كانت ترسل أبناءها للتعلم في المدارس الدينية[83]. وأدى الانقطاع عن الداعمين السابقين، ثم الغضب من استخدام السعودية قاعدة للقوات الأمريكية لطرد الجيش العراقي من الكويت عام 1991، إلى تحول اللواء «الدولي» من قدامى الجهاديين الذين تمركزوا سابقا في أفغانستان ومناطق الحدود الباكستانية إلى فرقة «مستعدة لخدمة القضايا الإسلامية الراديكالية في أي مكان من العالم»، حسب تعبير كيبل. وأضاف ملاحظا:

> تكثف الجهاد عام 1992 في البوسنة والجزائر ومصر، حالما بدأ قدامى الجهاديين المشاركين في الحرب الأفغانية في الوصول إلى أوطانهم عائدين من بيشاور [الباكستانية، قرب الحدود الأفغانية]. في مصر، كما في الجزائر، كان المقاتلون من المواطنين المحليين الذين هاجروا إلى المعسكرات الأفغانية في منتصف الثمانينيات بتشجيع سري من الحكومة، التي أسعدها التخلص من هؤلاء المتمردين والساخطين

ومثيري الشغب والمشاكل. في البوسنة، كان الجهاديون من الأجانب كلهم، معظمهم من العرب وخصوصا السعوديين. في طاجيكستان ـ والشيشان بعد عام 1995 ـ لعب غيرهم من المتطوعين العرب دورا مهما في محاولة تحويل الصراع المحلي إلى حرب جهادية سافرة. أما انتشار قدامى المحاربين من الجهاديين (الذين تركزوا سابقا في كابول وبيشاور) في شتى أنحاء العالم فيفسر أكثر من أي شيء آخر التوسع المفاجئ والسريع للإسلاموية الراديكالية في البلدان الإسلامية والغرب[84].

النقطة العمياء الأمريكية الأخرى كانت بالطبع العراق ذاته. فمع اعتلاء آية الله الخميني سدة السلطة في إيران عام 1979، اعتبر صدام حصنا واقيا من التطرف الشيعي والسقوط المحتمل للأنظمة العربية الممالئة للولايات المتحدة[85]. في عام 1982، لم يعد العراق فعليا على لائحة واشنطن الرسمية للدول الداعمة للإرهاب [86]. وساندت الولايات المتحدة العراق في حربه مع إيران، وأجاز المسؤولون في إدارتي ريغان وبوش الأب بيع العراق العديد من السلع التي يمكن استخدامها عسكريا ومدنيا، بما فيها المواد الكيماوية السامة والمواد البيولوجية المهلكة، مثل الجمرة الخبيثة والطاعون الدبلي[87]. لم تظهر الحكومة الأمريكية اهتماما كبيرا باستخدام الأسلحة الكيماوية آنذاك. وبدت أمارات «الوداعة» حتى على الصحافة، حيث كتبت صحيفة «واشنطن بوست» عام 1984 تقول: «ليس من المفاجئ» أن يستخدم العراق الغازات نظرا لشراسة العدو الإيراني، وأضافت: «حين تأخذ بالاعتبار جميع الطرق التي ابتكرها الناس لممارسة العنف ضد بعضهم بعضا، فإن من المستغرب أن تشعر بالقلق من طريقة واحدة بعينها»[88].

ليس ثمة شك في عنف الانتهاكات التي ارتكبها صدام حسين، ليس أقلها استخدام الغازات ضد الكرد في حلبجه عام 1988 حيث قتل حوالي 5 آلاف شخص

على أقل تقدير. لكن يصعب استعمال مثل هذه الانتهاكات كتفسير معقول للهجوم على العراق عام 2003. مرة أخرى، يساعدنا هنا بعض الإحساس بالتاريخ. ففي أوائل السبعينيات حين كان العراق حليفا للاتحاد السوفييتي ويشكل تهديدا لشاه إيران المدعوم من قبل الولايات المتحدة، وعد هنري كيسنجر وريتشارد نيكسون بدعم ثورة كردية مستمرة ضد صدام. لكن حين تنازل صدام عن بعض الأراضي لإيران، سحب كيسنجر ونيكسون المستشارين من شمال العراق واكتفيا بالمراقبة عندما أغلق الحدود وذبح الأكراد(89). وساعدت الشركات الغربية صدام حسين على تجميع ترسانة مرعبة من السلاح، شملت الأسلحة الكيماوية(90). كما شجع الدعم الأمريكي لصدام على سكوت الغرب تجاه الهجمات اللاحقة على الأكراد، خصوصا عام 1988. وأدت الهجمات التي شنتها القوات العراقية على الأكراد بين عامي 1987-1989 (التي شكلت حلبجه جزءا واحدا منها) إلى مقتل حوالي خمسين ألفا من القرويين الكرد، وذلك تبعا حتى للتقديرات المحافظة(91).

وفي عام 1991، تلقى الكرد في شمال العراق والشيعة في جنوبه التشجيع للقيام بثورة ضد صدام في أعقاب حرب الخليج. ولم يتدخل الغرب لوقف الرد العسكري العراقي ضدهم (لكن بذلت جهود مهمة لتوفير ملاذ آمن للأكراد حين تعرضوا للهجوم وفروا إلى إيران وتركيا، وهذه الأخيرة تعتبر حليفا رئيسا للغرب)(92). وبعد أن اختفت حلبجه فعليا عن الأخبار الأمريكية بدءا من عام 1989، أخذت في الظهور على نحو متزايد منذ أيلول/ سبتمبر 2002. حين بدأت إدارة بوش حملة إقناع الرأي العام بالحرب على العراق(93).

لبريطانيا نقاطها العمياء أيضا ـ على الأقل نتيجة تغذية الوهم بأنها ما تزال قوة عظمى ورفض الاعتراف بأنها انحدرت إلى مرتبة تقع بين المساعد الثانوي والضعيف الذي يسهل استهدافه. أما سنوات الإنكار الطويلة لزوال الإمبراطورية

البريطانية فيصعب أن تشكل أساس واعدا. وكما علق سيوماس ميلن في صحيفة «الغارديان»، يبدو أن الذاكرة الانتقائية للاستعمار القديم تشكل جزءا من تبرير الإمبريالية الجديدة[94]. ولاحظ الروائي الألماني غونتر غراس: «أعجب أحيانا كيف لا يعرف الشباب الذين ترعرعوا في بريطانيا سوى القليل عن التاريخ الطويل للجرائم التي ارتكبت خلال الحقبة الاستعمارية. فهذا من الموضوعات المحرمة في إنكلترا»[95]. ومن المعترف به أن الإمبراطورية موضوع مهمل في المدارس البريطانية [96]. كم عدد الراشدين البريطانيين الذين يعرفون شيئا عن المجاعة التي أودت بحياة ثلاثة ملايين شخص في البنغال إبان الحكم البريطاني (حدثت عام 1943)؟ إدراكي للنقاط العمياء في وطني، بريطانيا، تحسن نتيجة حديث تبادلته مع صديق نيجيري، اسمه اديكي اديباجو، الذي قال إن سجل البريطانيين في جرائم الإبادة الجماعية ضد سكان أمريكا وأستراليا الأصليين مخز ومخجل. لكنني اعترضت قائلا إن هذه الفظائع ارتكبها الأستراليون والأمريكيون. فاضطر صديقي للتأكيد على أن معظم مرتكبي هذه الأعمال أتوا من بريطانيا. وظهرت مجموعة أخرى من النقاط العمياء: كم عدد الذين يفهمون الإحساس بخيبة الأمل الذي انبثق حين تناقض تشجيع بريطانيا للقومية العربية (كمهماز يستحث الثورة على الأتراك في الحرب العالمية الأولى) مع الوعد بإنشاء وطن قومي لليهود (في فلسطين) والرغبة في توسيع ومد السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية حالما تنتهي الحرب؟ حتى أفضل اللحظات في التاريخ البريطاني يمكن أن تعزز النقاط العمياء المعاصرة: خصوصا وأن «الحرب العادلة» ضد النازية قد استخدمت لتبرير الحروب اللاحقة كلها باسم الديمقراطية ضد أي «هتلر جديد»[97].

العراق بذاته صناعة بريطانية، حيث جمعت أجزاؤه بعد الحرب العالمية الأولى من ثلاث ولايات تابعة للسلطنة العثمانية المنهارة. أراد البريطانيون تجنب إنشاء حكومة تمثيلية في العراق، نظرا لاعتبار غالبية السكان الشيعة من المتشددين

والمتعصبين، بينما اعتبر سنة بغداد ـ الذين بقيت هيمنتهم السياسية حتى حقبة صدام ـ أكثر ليونة وخضوعا للبريطانيين[98]. وبالطبع لم يذكر مبدأ «فرق تسد» الاستعماري التقليدي هذا حين اعتبر «المثلث السني» المصدر الرئيس لمعارضة الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني للعراق بدءاً من عام .2003المرجعية التي استخدمتها بريطانيا والولايات المتحدة لتبرير الهجوم على العراق عام 2003 لها علاقة بهذه البنية الكولونيالية المصطنعة تماثل العلاقة بشخصية صدام حسين التي ركز الغرب عليها بهذا الشكل الحصري. علاوة على ذلك، كم عدد الذين يعرفون شيئا عن قصف بريطانيا لشمال وجنوب العراق طيلة العشرينيات، حين كانت هي الدولة المنتدبة من قبل عصبة الأمم لحكم العراق، القصف الذي قتل حوالي تسعة آلاف عراقي في صيف عام 1920 وحده؟ لقد استخدم الجيش البريطاني الغازات السامة في تلك السنة، وقال بطل بريطانيا القومي ونستون تشرشل الذي كان وزير دولة في وزارة الحرب آنذاك: «أؤيد بشدة استخدام الغاز السام ضد القبائل الهمجية.. [من أجل] نشر نوع من الرعب الحيوي»[99]

مكافحة الإرهاب وتكاثر الأعداء

تعاظم التهديد بالعار حين أدت ردة الفعل العنيفة واللاشرعية للتحالف عبر الأطلسي على الحادي عشر من سبتمبر إلى إدانة عالمية واسعة النطاق. ومن أساليب درء ذلك التعامل مع كل انتهاك تعسفي باعتباره استثناء، مثلما قال بوش عن صور «أبو غريب» إنها «لا تمثل أمريكا». الممثل الكوميدي روب كوردراي انتقد هذه المقاربة حين قال: «مبادئنا هي المهمة، أفكارنا النظرية الملهمة. تذكروا: لمجرد أننا قمنا بتعذيب الأسرى في السابق، لا يعني أننا يمكن أن نقوم به الآن»[100].

من المهم أيضا لدرء العار الناجم عن مكافحة الإرهاب (إضافة إلى الحفاظ على تأييد جمهور العامة) وسائل الإعلام المتعاونة والمذعنة. فمن المعروف أن

الحقيقة هي الضحية الأولى للحرب[101]. وأظهرت فيتنام أهمية السيطرة على وسائل الإعلام، وطبق الدرس بحماس في حرب الخليج عام 1991. وحين لاح في الأفق شبح الهجوم على العراق عام 2003، لم ينتبه الصحفيون الأمريكيون كثيرا لقلق الأوساط الاستخبارية في الولايات المتحدة من كيفية استخدام بوش للمعطيات المتعلقة بالعراق. وبعد تحقيقات تفصيلية، قال مايكل ماسينغ عن الصحفيين في واشنطن: «في مدينة يمثل فيها الوصول إلى مصادر المعلومات كل شيء، لم ترغب سوى قلة قليلة بالمخاطرة بخسارتها»[102]. وخلال الغزو، شجعت ممارسة مرافقة الصحفيين لوحدات التحالف العسكرية «المراسلين على التطابق والتماهي مع الجنود الذين كانوا يغطون أخبارهم.. فقد شهد الصحفيون المرافقون للجنود الأسلحة وهي تطلق نيرانها، لكن نادرا ما شاهدوا ماذا حدث للأهداف التي تتلقى القصف»، كما لاحظ شيلدون رامبتون وجون ستوبر[103]. حظر نشر صور التوابيت المكفنة بالعلم الأمريكي وهي تعود إلى الوطن، وكانت الرقابة الذاتية واسعة الانتشار في الصحافة ـ فيما يتعلق مثلا بصور الجنود الأمريكيين أو الأطفال العراقيين القتلى[104].

الأسلوب الثالث الذي ساعد على درء العار مثلته إستراتيجية الاستئساد والترهيب للحصول على الموافقة والقبول بواسطة الضغوط السياسية والاقتصادية، خصوصا تجاه مختلف أعضاء مجلس الأمن الدولي خلال محاولات المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين التوصل إلى اتفاق يجيز شن هجوم على العراق[105].

لكن هذه الأساليب الثلاثة لم تصادف سوى نجاح محدود. فمن المهم أيضا لدرء الشعور بالعار الناجم عن الاستجابة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر استمرارية إعادة تعريف "الأصدقاء" و"الأعداء". ولعب بوش وبلير الدور الرائد في النزعة إلى التصدي للنقد عبر تضييق دائرة الأصدقاء الموثوقين وتوسيع دائرة الأعداء. فالحلفاء الذين اعتبروا غير ميالين إلى العدوان والحرب بما يكفي أصبحوا هدفا

لغضب جامح وشديد، وشملت فئة الأعداء عددا متزايدا من المنتقدين في الداخل، كما ضمت – في الممارسة إن لم يكن في النظرية ـ العديد من المدنيين في البلدان المستهدفة (لاسيما العراق).

إيمان بوش وبلير الراسخ بأنهما يجلبان الحرية إلى المضطهدين، شكل عاملا مساهما في تأجيج مشاعر الغضب لديهما على أولئك الذين عارضوا هذا المشروع المضلل[106]. ورأينا مرارا وتكرارا حجم الترهيب والتهديد الذي يتعرض له كل من يهدد بالعار العالم الخالي من الشعور به (تقريبا) الذي شيده الزعيمان حولهما. إن درء الشعور بالعار شكل أيضا عاملا أثر في جنود التحالف على الأرض، ورد بعضهم بغضب شديد على «جحود» المدنيين العاديين ونكرانهم جميل «تحريرهم».

تقليص دائرة الحلفاء الموثوقين

لاحظ وزير الخزانة بول اونيل أن بوش، خصوصا بعد الحادي عشر من سبتمبر، حوصر في «غرفة معزولة» صنعها بنفسه، حلقة تضيق باستمرار من المستشارين الذين حجبوا عنه الواقع الحقيقي[107]؛ ومن المهم في دلالته أن الاعتماد على هذه الحلقة الضيقة من المستشارين المحليين استمر على الأغلب في الولاية الثانية لإدارة بوش، حاملا في ركابه النزعة المتحررة من الشعور بالعار[108]. قسم آخر من منطقة بوش المتحررة من العار أتى بفضل توني بلير. فالمستأسدون نادرا ما يقفون لوحدهم؛ إنهم بحاجة إلى آخرين للمصادقة على سلوكهم وتقديم «الاحترام» الذي يتلهفون عليه. في فيتنام، وجد الجندي الأمريكي مايكل بيرنهاردت أنه حين حاول التدخل لوقف الانتهاكات التي يرتكبها الجنود الأمريكيون بحق المدنيين، تراجع الجنود بشكل سريع نسبيا:

> كانوا في الحقيقة مستأسدين على الضعفاء، وجبناء، جبناء فعلا. وجودهم هناك لفترة وجيزة كان كافيا. لا لأنهم خافوا مني ـ فلا أعتقد

أنني خطر إلى تلك الدرجة، لا الآن ولا حينذاك. أظن أنني كنت كأم تنظر بعين القلق إلى أطفالها[109].

يبدو أن دعم بلير قد ألغى بالضبط احتمال أن ينظر الوطن الأم بعين القلق والسخط إلى الرئيس ـ هنا، علا صوت ملحاح يطمئن بوش الابن بأن العنف والاستئساد أمر مطلوب ومرغوب[110]. علاوة على ذلك، وكما لاحظ الصحفي تيموثي غارتون آش، فإن «استطلاعات الرأي الأمريكية أظهرت أن بوش بحاجة إلى حليف بارز ليتأكد من الدعم الشعبي للحرب على العراق. كان بحاجة إلى بريطانيا»[111].

في هذه الأثناء، كان بلير ذاته يشيد منطقته الخالية من الشعور بالعار، ليوصد الباب على نفسه ويصم أذنيه عن الآراء المناهضة للحرب بين أعضاء حزبه وغالبية الشعب البريطاني[112]. الأمر الحاسم في الأهمية هنا كان اعتماده على العلاقات مع مجموعة صغيرة من المؤيدين للحرب. ولاحظ جون كامبفنر في كتابه «حروب بلير» أن رئيس الوزراء أصبح يعتمد على حلقة داخلية محلية ضيقة «من أجل كل وأي قرار.. كانت حاشيته تعني كل شيء بالنسبة له». ومن أهم الشخصيات في الحلقة الداخلية السير ديفيد مانينغ، وكبير الموظفين جوناثان باول، ومدير الاتصالات الستير كامبل، والمستشارة السياسية سالي مورغان[113]. وجرى تهميش مسؤولي وزارة الخارجية. وأضاف كامبفنز أن «تركز السلطة في أيدي مسؤولين غير منتخبين، بعضهم يتمتع بخبرة واسعة في الشؤون الدولية، وبعضهم الآخر ليس له سوى خبرة محدودة، أغضب العديد من الديبلوماسيين البريطانيين»[114]. على الصعيد الدولي، كان بلير يحافظ على رابطته الوثيقة مع بوش (والعكس صحيح). وأصبح رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا ازنار واحدا من أكثر الذين تكرر اتصالهم هاتفيا مع بلير، ومع اتجاهه بشكل متزايد نحو بطانته المؤيدة للحرب، عزل أصدقاءه ومؤيديه الآخرين. لاحظ كامبفنر قائلا:

كان بلير ينطق اسم «خوسيه ماريا» بالمودة ذاتها التي ينطق بها اسم «سالي» [مورغان] أو «الستير» [كامبل]. بعض أصدقائه وجدوا هذا الانجذاب نحو رجل ينتمي إلى اليمين الأوروبي أمرا يصعب تحمله تماما كعلاقته الوثيقة مع جورج بوش.

يمكن للاستنكار الرافض بحد ذاته أن يصبح علامة دالة على الإيمان الراسخ والكرامة. لاحظ بيتر ستوثارد أن بوش وبلير «رجلان اعتادا تبادل الحكايات حول ضعف التأييد الشعبي لهما». وبعد الوصول إلى السلطة بغريزة تبحث عن الشعبية، وجد بلير الآن الطاقة والمواساة في حلقة متقلصة من الأصدقاء والمساعدين تبادله الموافقة والقبول. لم يكن أول من يفعل ذلك، ولا أول من يغرق في الوهم والتفكير غير الواقعي نتيجة لذلك. في مناقشة أكثر عمومية، كتب المحلل النفسي اوتو كيرنبرغ يقول:

> يحتاج الزعيم المبالغ في نرجسيته إلى الحب والإعجاب، ويميل إلى إحاطة نفسه بالرجال المذعنين دون مساءلة، مما يؤدي إلى انشقاق في القيادة المتوسطة: «جماعة داخلية» تحميه بإذعانها وخضوعها وتملقها ومداهنتها من انتقاد وسخط «الجماعة الخارجية» المرفوضة، وتحافظ على توازنه النرجسي، والثمن حرمانه من النقد والتغذية المرتجعة من الواقع[115].

تساعد هذه الآلية في تفسير كيف تمكن بوش وبلير من الحفاظ على بعض عوامل الاعتقاد الصادق بأن أعمالهما مرغوبة ومطلوبة رغم أن نتائجها العكسية المتوقعة لاحظها الخبراء ومسؤولو الاستخبارات. كما أن المكاسب السياسية والاقتصادية الناجمة عن «الحرب الدائمة» لعبت على الأرجح دورا في دعم ما أصاب كلا منهما من وهم ضلالي ذاتي.

أعداء الداخل

رأينا كيف أظهر جيمس غيليغان ورينيه جيرارد (كل بطريقته المختلفة) أن العنف يمارس عادة ضد أولئك الضعفاء الذين يمكن الوصول إليهم، وليس بالضرورة ضد المسؤولين عن الأعمال التي استفزت العنف أصلا. كما رأينا كيف قدم السعي للنقاء والطهر ـ ماضيا وحاضراً ـ نوعا من الحل أو التعويض عن الهزيمة والمذلة، ونوعا من الحصانة السحرية ضد أعداء الخارج. وهذا يشمل، على الأقل جزئيا، نقل التهديد من الخارج إلى الداخل. نحن نعرف أن تحديد هوية «شر» موجود هناك يتلاحم نمطيا في نقطة ما مع تحديد شر يتصل به، مع «طابور خامس» موجود هنا . في الولايات المتحدة ذاتها، جسد المثال التقليدي في هذا المجال السيناتور جوزيف مكارثي ومعاداته للشيوعية في الخمسينيات[116]. وقبل ذلك، جرت عمليات تجميع واحتجاز وإبعاد للمهاجرين من أوروبا الشرقية في الولايات المتحدة إبان قيام الثورة الروسية عام 1917. أما البحث عن التجديد الأخلاقي في أعقاب الكوارث فقد توسع ليشمل التعصب العرقي أو الديني، والتعريف العرقي أو الديني لـ«الطهر والنقاء»[117]. في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، خصوصا بعد خطأ بوش الفاحش عندما تحدث عن «حملة صليبية»، أظهر هو وبلير حرصا فائقا عند الخوض في المجال الديني، مع التشديد على الطبيعة المسالمة لغالبية المسلمين. لكن بعد الحادي عشر من سبتمبر، تعرض المسلمون والأمريكيون من ذوي الأصول العربية في الولايات المتحدة إلى التمييز والعديد من حوادث العنف نتيجة الكراهية والعنصرية[118]. وفي بريطانيا، قال كبار زعماء الجالية المسلمة إن المسلمين اعتبروا «عدوا داخليا» بعد الحادي عشر من سبتمبر[119]. ونشرت صحيفة «صنداي تلغراف» عام 2004 مقالة تبين لاحقا أنها لمسؤول في المجلس الثقافي البريطاني اسمه هاري كومينز، قال فيها: «تجمع المسلمين كلهم، كالكلاب، سمات مشتركة معينة». وقال في مقالة أخرى: «القلب الأسود للإسلام، لا وجهه الأسود، هو الذي

تعترض عليه الملايين»[120] . وكتب المراسل الأوروبي لصحيفة «تايمز» اللندنية، انتوني براون، يقول: «الإسلام يريد فعلا غزو العالم»، مضيفا بنبرة تهديدية:

> في القرن الماضي، برر المسيحيون اضطهاد اليهود وعمليات القتل الجماعي التي تعرضوا لها بزعم أن اليهود أرادوا الاستيلاء على العالم. لكن هذه الأوهام الخيالية الفاشية كانت تعتمد على أكاذيب متعمدة، مثل الكتاب المزيف السيئ الذكر «بروتوكولات حكماء صهيون». أما الآن، فإن الكثيرين في العالم الإسلامي يعبرون بصراحة عن رغبتهم في أن يغزو الإسلام الغرب[121] .

ظهر هذا النقد اللاذع كله قبل الهجمات الانتحارية التي شنها مسلمون يعيشون في بريطانيا في تموز/ يوليو 2005 [122]وأعقبت تفجيرات لندن بسرعة هجمات على المساجد في بريطانيا.

النزعة إلى توسيع تعريف العدو تسبب القلق على وجه الخصوص في ضوء ما نعرفه عن «المسار المهني» لعدد من الإرهابيين المعروفين وشعورهم بالتعرض للنبذ والإقصاء من قبل المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها. وإلى المدى الذي يتفاقم فيه هذا النبذ بواسطة إجراءات «مكافحة الإرهاب»، والخطاب البلاغي المعادي للهجرة، كذلك الذي تبناه حزب المحافظين في بريطانيا، أو العبارات التحقيرية والملاحظات المهينة التي أطلقها الصحفيون الأمريكيون عندما تحدثوا عن «لندنستان» بعد تفجيرات لندن، يمكننا أن نتوقع (مجدداً) ظهور مزيد من الإرهابيين.

ليس المسلمون وحدهم من يمكن اعتبارهم أعداء الداخل. فصفوف الذين شوهت سمعتهم وتعرضوا للأبلسة تتوسع بسرعة وذلك حين تقود لامعقولية الاضطهاد الأصلي إلى التصميم العنيد على الدفاع عنه بوصفه عقلانيا ومعقولا. فهؤلاء الذين يضعون تعريف «العدو» موضع المساءلة والتشكيك ربما يوسمون بسرعة

بهذه الصفة. والخشية من التصنيف في خانة العدو الداخلي يمكن أن تساعد في الحفاظ على النظام السياسي وتقليص حالات الانشقاق إلى أقصى حد ـ خصوصا حين نأخذ بالاعتبار عشوائية واعتباطية اختيار الأعداء. وليام بينيت، وزير التربية السابق في عهد ريغان، الذي ألف كتابا بعنوان «لماذا نقاتل: الوضوح الأخلاقي والحرب على الإرهاب» (2002)، كتب في «نيويورك تايمز» (آذار/ مارس 2002) يقول:

> التهديدات التي نواجهها اليوم خارجية وداخلية في آن: خارجية تتمثل في جماعات ودول تريد مهاجمة الولايات المتحدة؛ وداخلية تتجسد في أولئك الذين يحاولون استغلال هذه الفرصة لإشاعة ونشر أجندتهم القائمة على مبدأ «وجه اللوم إلى أمريكا أولا». وينبع التهديدان كليهما إما من الكراهية لُمثل أمريكا في الحرية والمساواة أو من سوء فهم هذه الأفكار وممارستها[123].

خاف العديد من الديمقراطيين، خصوصا في مجلس الشيوخ، من بوش وكارل روف، اللذين صادقا عام 2002على إعلانات دعائية تظهر وجوه الأعضاء الديمقراطيين إلى جانب ابن لادن وصدام حسين[124]. أما معارضة «قانون الوطنية»، الذي وسع السلطات الحكومية لتشمل التنصت على المكالمات الهاتفية واعتقال أو ترحيل المهاجرين بأمر من المدعي العام، فتعني أنك تخاطر باتهامك بافتقاد الحس الوطني. كما أن الصحفيين الذين يتساءلون عن السبب وراء الاندفاع المتهور إلى الحرب على العراق يمكن أن يصبحوا بسرعة جزءا من «العدو». ومثلما لاحظ ماسينغ: «وقفت ـ فوكس نيوز ـ، و ـ روش ليمبو ـ و ـ ويكلي ستاندارد ـ وغيرها، على أهمية الاستعداد للانقضاض على الصحفيين الذين يحيدون عن الطريق المرسوم، ونعتهم بالليبراليين أو الخونة ـ وهي من الصفات التشهيرية التي يمكن أن تدمر مستقبلهم المهني إلى الأبد»[125]. كتب وليام كريستول في خريف عام

2002حول «محور الاسترضاء» ـ الممتد من الرياض إلى بروكسل إلى فوغي بوتوم [الحي الذي تقع فيه وزارة الخارجية في واشنطن][126] وفي هذه الأثناء، لعبت زوجة ديك تشيني، لين، دورا بارزا في مجلس الأمناء والخريجين الأمريكيين، الذي حدد أساتذة الجامعات الذين اعتبروا غير وطنيين بما فيه الكفاية[127]. في الوسط الأكاديمي، ظهرت محاولات لربط التمويل الاتحادي بتجنب النقد المتطرف للسياسة الخارجية الأمريكية[128]. بعض الأساليب التهديدية ارتدت إلى نحر إدارة بوش. خصوصا فضيحة «بليم غيت» الضارة سياسيا، حين تركزت التحقيقات على من سرب هوية عميلة وكالة المخابرات المركزية، فاليري بليم، إلى الصحفيين: على ما يبدو لتلطيخ سمعة زوجها، جوزيف ولسون، الذي انتقد الاستعداد للحرب[129].

بعد تفجيرات لندن في تموز/ يوليو 2005، شعر السياسيون البريطانيون مرة أخرى بأنهم أحرار في الإدلاء بجميع أنواع التصريحات حول ما «يريده» الإرهابيون. وكان الموضوع المتكرر هو أنهم يريدون «إيقاع الفرقة بيننا»: والمعنى الضمني هنا هو أن انتقاد سياسة الحكومة سيعطي نصرا للإرهابيين. في آب / أغسطس 2005، أعلن توني بلير عن نيته تجريم كل من «يسامح، أو يمجد، أو يبرر» الإرهاب في أي مكان من العالم ـ وتلك صيغة واسعة وخطرة تهدد حرية الكلام وربما لن تمثل خبرا سارا لزوجته تشيري التي قالت ذات مرة في حفلة غداء عن نداء أطلقته منظمة خيرية طبية فلسطينية: «لن يتحقق أي تقدم طالما يشعر الشباب بأن لا أمل لهم إلا بتفجير أنفسهم»[130]. وفي خطوة خرقاء مجنونة، قال وزير الداخلية تشارلز كلارك إنه يعد قائمة بأعمال الإرهابيين السابقة التي سيعتبر الاحتفاء بها عملا جنائيا، وسارع إلى ذكر ايرلندا بوصفها استثناء.

لاحظ ارثر ميللر (مؤلف مسرحية «البوتقة») أن هناك منطقا مرعبا في حملات مطاردة الساحرات في مدينة سالم بأمريكا الشمالية. فقد أشار الكتاب المقدس إلى وجود الساحرات لذلك إذا نفيت وجودهم فأنت تنكر تعاليم الإنجيل،

وهذا دليل يثبت بحد ذاته أنك ساحر ويجب قتلك. ويبدو في هذه الأيام أيضا أنك إذا رفضت مفهوم «الشر» كتفسير (لهجمات الحادي عشر من سبتمبر على وجه الخصوص)، فقد يعتبر ذلك دليلا يثبت أنك من أصحاب الشيطان. تنزع هذه الآلية إلى «قفل» النقاش العام داخل قالب من الافتقار الدائم إلى الفهم. وعلى حد تعبير جوان ديديون: «استقصاء طبيعة العدو الذي نواجهه.. كان يفسر باعتباره تعاطفا مع ذلك العدو»[131].

حتى الوقوف على الحياد فسر على نحو متزايد بوصفه موقفا خطرا. في معرض تعليقه على الحرب القذرة في الأرجنتين في السبعينيات، قدم أنطونيوس روبن الحجة على أن العسكر ورجال حرب العصابات على حد سواء شعروا بنوع من الخوف من المحايدين[132]. وأولئك الذين رفضوا الانضمام إلى أحد المعسكرين تعرضوا غالبا للهجوم، معنويا وماديا. شرح روبن الأمر قائلا:

> لم يشكل الحياديون والجبناء والمذعورون تهديدا عسكريا أو سياسيا، بل تهديدا مفهوميا وأخلاقيا، تهديدا للمعنى المتعارض للعداوة وأخلاقية الموالاة التي يستدعيها ـ فهم يظهرون أن العنف ليس قدرا محتوما بل هو نتاج لخيار البشر ومن صنعهم.

إذا مثلت «حتمية» العنف مفتاح شرعنته وتأمين الدعم له (انظر الفصل السابع)، فإن كل من يتحدى هذه الحتمية سيعتبر بمثابة تهديد. في بريطانيا، أظهر النزاع بين هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) والحكومة كيف تصبح الحيادية تهديدا. إذ إن توسيع دائرة الأعداء لتشمل هيئة الإذاعة البريطانية ذاتها ساعد على درء الشعور بالعار وقدم أداة مفيدة لتشتيت الانتباه عن كذب الحكومة البريطانية. كان الأمر أيضا استئسادا مجردا: قال ريتشارد سامبروك مدير الأخبار في الهيئة: «رأينا الراسخ أن الحكومة حاولت ترهيب الهيئة لبث روايتها عن الأحداث المفضية إلى الحرب وخلال

مسار الحرب نفسها»[133]. وتعرض مراسل «بي بي سي» اندرو غيليغان للتشهير والتنديد بسبب إشارته (الصائبة) إلى أن الحكومة علمت باستحالة إطلاق أسلحة الدمار الشامل بخلال 45 دقيقة من تلقي الأمر بذلك، بينما تركز الهجوم على غيليغان على تفصيلات صغيرة نسبيا مثل اتهامه الموظف البريطاني والخبير في الأسلحة ديفيد كيلي بأنه يعمل في الاستخبارات، وقراره بعدم تدوين رسائله التي تبث على الهواء[134]. إحدى الرسائل التي نشرت في صحيفة «الغارديان» لخصت ازدواجية معايير الحكومة بشكل بليغ: «يتوقع [مدير الاتصالات]الستير كامبل من هيئة الإذاعة البريطانية أن تمتلك دليلا أقوى قبل أن تنشر أي قصة من الدليل الذي يتوقع أن تمتلكه الحكومة قبل أن تشن الحرب»[135]. إن أي حكومة أقل حساسية تجاه النقد لا بد أن تشعر بالرضى على هيئة الإذاعة البريطانية: فوفقا لدراسة أجرتها جامعة كارديف، كانت الهيئة تستخدم نسبة مرتفعة من المصادر الحكومية أو العسكرية التابعة للتحالف، مقارنة بغيرها من القنوات التلفزيونية، وكانت لا تركز كثيرا على الخسائر العراقية في الأرواح[136]. أما الطعن والتشهير باندرو غيليغان واتهامه ديفيد كيللي بالعمل في الاستخبارات فقد أظهرت جميعا أن الشهية لمطاردة الساحرات ـ والبحث عن هدف سهل يبعد الانتقاد ويجنب التفكر بالذات ـ قابله للتوسع والامتداد إلى ما لا نهاية. وحتى تحقيق لجنة هوتون (في موت كيللي) كان من جوانب عديدة وسيلة لتشتيت الانتباه عن القضية المحورية، ألا وهي الاندفاع القائم على الكذب والخداع إلى الحرب على العراق. في الولايات المتحدة، ساعد تحويل وكالة المخابرات المركزية إلى كبش فداء على إبعاد بعض الضغوط عن بوش[137].

حلفاء يخطئون

أي دولة في العالم تضع التحليل السائد أو «الحل» المفضل موضع المساءلة توسم بسرعة بالخيانة. كان غضب الولايات المتحدة على روسيا وألمانيا وفرنسا

(خصوصاً) عارما وشديدا. فموقف هذه الدول لخصته كوندوليزا رايس بعبارة «non-nein-nyet لا»، (باللغات الفرنسية والألمانية والروسية) (وهذا يعني ضمنا أن هؤلاء لا يتحدثون حتى بالإنكليزية). الكثيرون في واشنطن اعتبروا أن المستشار الألماني غيرهارد شرودر قد أعيد انتخابه في أيلول/ سبتمبر 2002 نتيجة استغلال المشاعر المعادية لأمريكا[138]. أما بالنسبة للعداء لفرنسا، فقد أطلق على «البطاطا المقلية» الفرنسية اسم «الحرية المقلية»، وكان ذلك بمثابة أحد تمظهرات هذا العداء. إذ نشرت صحيفة «نيويورك بوست» على صدر صفحتها الأولى صورة لمقبرة لجنود أمريكيين قتلوا في فرنسا في الحرب العالمية الثانية، برفقة عنوان يقول: «التضحية: ماتوا من أجل فرنسا لكن فرنسا نسيت»[139]. وفي مقالة تطالب بطرد فرنسا من مجلس الأمن الدولي، كتب الصحفي الليبرالي (كما يزعم) توماس فريدمان يقول: «لو لم تتدخل أمريكا واضطرت أوروبا للاعتماد على فرنسا لكان معظم الأوروبيين اليوم يتكلمون إما بالألمانية أو الروسية»[140].

وفي مناورة «اورويلية» (نسبة إلى جورج أورويل)، جرى توجيه اللوم إلى البلدان المطالبة بضبط النفس وعدم اللجوء إلى القوة العسكرية وحملت مسؤولية التسبب بالحرب. وعشية الحرب على العراق قال بلير: «يجب أن يكون العامل الجوهري هو: الرسالة القوية والموحدة لبغداد من بقية العالم تعني السلم. أما الرسالة الضعيفة فتعني الحرب»[141]. وردد هذا المنطق توماس فريدمان، بعد إضافة اتهام فرنسا بالطفولية: «الطريقة الوحيدة الممكنة لإجبار صدام على الامتثال ـ بدون حرب ـ هي أن يرص العالم كله صفوفه، كتفا إلى كتف، ضد سوء سلوكه، دون أي فجوات، لكن فرنسا، كما يقال في حضانات الأطفال، لا تلعب بشكل جماعي مع الآخرين»[142]. وثبت أن المشاعر المعادية لفرنسا ملحة وعنيدة: ففي أيلول/ سبتمبر 2004، ألقى السيناتور الديمقراطي «المارق» زيل ميللر خطابا أمام مؤتمر الحزب الجمهوري زعم فيه أن كيري ربما يأخذ أوامره من باريس[143].

المدنيون في البلدان المستهدفة

في سياقات أخرى، اعتبرت الفصائل العسكرية المدنيين غادرين وجاحدين ـ وتهديداً أيضا لأمن المقاتلين. ومن الطبيعي أن يؤدي تصاعد الانتهاكات ضد المدنيين إلى مزيد من الإحباط وخيبة الأمل بينهم، ولربما تتجدد الحلقة المفرغة وتتعمق. وكثيرا ما تغذى الغضب والخوف على بعضهما بعضا. على سبيل المثال، في الحرب الأهلية في سيراليون، كان من الممكن تفسير عنف المتمردين وجنود الحكومة ـ في جزء منه ـ بواسطة الأجندات الاقتصادية التي تبناها الطرفان، لكن الاستقصاءات التي أجريتها بنفسي (إضافة إلى قسوة وفظاعة العنف) أشارت إلى أهمية العوامل العاطفية / الانفعالية، وعلى وجه الخصوص، العداء المشترك بين المقاتلين تجاه المدنيين، وهو عداء ينمو ويستفحل حين يبدأ هؤلاء بإظهار «جحودهم» عبر توجيه «إصبع الاتهام» إلى المتمرد أو الجندي بسبب جشعه وانتهاكاته. وبالتالي يغذي إحساس المقاتلين بأنفسهم كعناصر أخلاقية غضبهم وانتهاكاتهم فعلا، وتميل إدانة المدنيين للمقاتلين إلى تفاقم حدة العنف. هذه العملية تتصل اتصالا وثيقا بظاهرة لاحظها العالم النفساني جيمس غيليغان: يمكن لإحساس الأفراد بأنفسهم كعناصر أخلاقية أن يغذي العدوانية فيهم حين يحاولون بأسلوب عنيف درء الشعور بالعار. وعلق أحد الناشطين في مجال حقوق الإنسان في سيراليون بالقول: «حين أدركنا أنها حرب ضد المدنيين أصبح المتمردون أعداؤنا. ولأن المدنيين يوجهون الإدانة إليهم الآن، تضاعف استهدافهم للمدنيين». ومن المهم في دلالته أن متمردي «الجبهة المتحدة الثورية» (في سيراليون) كثيراً ما ارتكبوا الفظائع بينما كانوا يجبرون أقارب الضحايا على التهليل للانتهاكات ـ كأنما يجبرون الآخرين بالقوة على الاعتراف بدورهم الجديد كـ«رجال عظام» وإزالة أي شعور بالعار من بيئتهم المحيطة.

الحرب الأهلية المريرة في غواتيمالا أظهرت أيضا كيف يمكن للعار الناجم عن العنف أن يغذي ويشجع مزيدا من العنف، وكيف يمكن للإدانة أن توسع دائرة

الأعداء: على سبيل المثال، أظهرت دراسة جوديث زور حول أرامل الحرب في غواتيمالا أن قادة دوريات الميليشيا المدنية التي ترتكب الانتهاكات شعروا بخوف قوي من كلام الأرامل (أرامل الحرب على وجه الخصوص).فقد خافوا من السخرية والهزء والعقاب البدني والعقاب القانوني. وشجع ذلك كله على استمرار العنف، لاسيما ضد النساء. أما محاولات نقل الشعور بالعار من الضحية إلى الجلاد ـ مثلا: في المراسم الشعائرية المصممة «لإعادة أنسنة» ضحايا العنف ـ فقد دفعت من ارتكب الانتهاكات إما إلى رد عنيف وأثيم، أو إلى الانهيار العصبي[144].

في حالة العراق على وجه الخصوص، مالت دائرة الأعداء إلى التوسع أيضا لتشمل العديد من المدنيين العراقيين، ومرة أخرى، شكل تجنب العار آلية مهمة. ويبدو أن عادة فصل الأشرار «عنا» قد ساعدت على إيجاد حالة من الصدمة الدائمة حين فشل هؤلاء الذين تم إنقاذهم من الشر في إظهار امتنانهم المرتقب لمن اعتبروا أنفسهم «أخياراً». وهذا يعكس أنماطا مشابهة ظهرت أيضا في حرب فيتنام[145]. في واشنطن ولندن، ظل السياسيون والجنود وخبراء الشؤون الخارجية يتوقعون طيلة شهور بأن اعتقال أو قتل صدام حسين سوف يؤدي إلى تهدئة الصراع. وحسب المحللون أن مقتل ابني صدام، عدي وقصي، سوف يضعف التمرد، لكنه قوي وتصاعد[146]. وكان من المتوقع (خطأ) أيضا أن يمثل تشكيل حكومة إياد علاوي المؤقتة (في حزيران/ يونيو 2004)، ثم الانتخابات الوطنية (كانون الثاني/ يناير (2005، بداية لتراجع التمرد.

في العراق، بدا العديد من الجنود الأمريكيين الذين استهدفتهم هجمات رجال المقاومة غير قادرين على فهم السبب وراء غضب هذا العدد الكبير من العراقيين [148]. أليس ما يقومون به حربا ضد الشر، برغم كل شيء؟ ونتيجة الخوف والغضب، لم يميز الجنود الأمريكيون أحيانا بين مقاتلي العدو والمدنيين[149]. ونقل مراسل «صنداي تايمز» مارك فرانشيتي عن العريف في الجيش الأمريكي ريان دوبر

قوله: «العراقيون قوم مرضى ونحن العلاج الكيماوي. بدأت أكره هذا البلد. انتظر حتى أمسك عراقي حقير. لا لن أمسك بواحد بل سأقتله» [150]. وعلق أحد كبار المسؤولين المدنيين في وزارة الدفاع في منتصف عام 2003 بالقول: «العديد من جنودنا هناك بدؤوا يكرهون العراقيين»[151]. والإحباط الذي شعر به الجنود انعكس لدى عائلاتهم. ففي مدينة هينسفيل (بولاية جورجيا)، حيث تتمركز فرقة المشاة الثالثة، غضب السكان من عدم الاعتراف بتضحيات الجنود بصورة أكثر صخبا من قبل المستفيدين منها[152]. وقالت امرأة يعمل زوجها سائق شاحنة في هذه الفرقة التي فقدت حتى الآن خمسا وثلاثين من جنودها: «حسبت أنهم [العراقيين] سيكونون أكثر حماسا، أعني، من لا يرغب بالعيش مثل الأمريكيين، في ظل الديمقراطية، وإرسال أبنائهم إلى المدارس؟ فاجأني مدى سذاجة العراقيين»[153].

بالنسبة للمؤسسة العسكرية الأمريكية، يمكن درء العار الناجم عن معارضة الاحتلال عبر توجيه اللوم إلى «الإرهابيين»، أو «الصداميين»، أو المتسللين الأجانب [154]. سمة أخرى ألصقت بأولئك الذين يعارضون الاحتلال هي «القوى المعادية للعراق» (عبارة رددتها محطة «سي ان ان»)[155]. لكن المقاومة المنتشرة والعنيدة أضعفت بشكل متكرر محاولة فصل المعارضة عن المدنيين. والحساسية البالغة تجاه النقد الموجه من العراقيين، تبدت بصورة واضحة حين أصدر بول بريمر، رئيس سلطة التحالف في العراق آنذاك قرارا في حزيران/ يونيو عام 2003 يحظر أي «تجمعات، أو بيانات، أو منشورات» تدعو إلى معارضة الاحتلال الأمريكي[156]. وفي داخل العراق، كانت السيطرة على وسائل الإعلام تصل إلى درجة مفضوحة وعنيفة، كما حدث عندما هاجم الجنود الأمريكيون المركز الإخباري التابع للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. وبالنسبة للجنود الأمريكيين أنفسهم، يبدو أن الغضب على «جحود» السكان المحليين قد توالف بشكل خطر مع إحساس بأن القادة العسكريين والزعماء السياسيين قد خذلوهم (وهذا شعور مألوف في حرب فيتنام

والعديد من الصراعات في البلدان الأخرى، بما فيها سيراليون)[157]. علاوة على ذلك، ما إن تبدأ بقتل المدنيين حتى تنطلق ديناميـة جديدة ومدمرة. أشار اومر بارتوف في كتابه «جيش هتلر» إلى زيادة الطلب على الدعاية العنصرية في الجبهة الروسية ـ لاسيما لمحو عار الفظائع التي ارتكبت. وينقل جوناثان غلوفر عن جندي روسي هاجم المدنيين بالقنابل اليدوية في أفغانستان قوله: «يجب أن تجد نوعا من الذريعة التبريرية لمنع نفسك من الجنون»[158].

خاتمة

قد يعمل الشعور بالعار بطرائق غامضة. ومثلما قالت الكاتبة الأمريكية نعومي وولف:

> كنا على استعدادا للقبول بازدراء أولئك الضفادع المخنثين ـ في «القارة العجوز» ـ حين كنا ثملين بانجازاتنا وبأنفسنا؛ عزلتنا جعلت ذلك أمرا سهلا. لكن الآن [بعد إعصار كاترينا على وجه الخصوص] نشعر فعلا بالخجل من أنفسنا في الوطن، ولا يمكن أن نتحمل ازدراء العالم بالطريقة ذاتها. فهو يجرح ويؤلم الآن[159].

قبل هذا التأمل في الذات، كان من الممكن التصدي للشعور بالعار عبر إعادة تعريف العدو. وقيل أحيانا: إن بوش رد على الحادي عشر من سبتمبر بالهجوم على أفغانستان والعراق. هذا صحيح، لكنه لا يفيدنا كثيرا. نحن بحاجة إلى فهم التهديد الداهم بالعار الناجم عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم تفاقمه واستفحاله نتيجة الرد العنيف عليها. الأمر الذي يساعدنا على فهم سبب تكاثر الأعداء ـ والانتهاكات ضد المدنيين ـ في مكافحة الإرهاب؛ وتفسير التضيق المستمر في دائرة الحلفاء الموثوقين؛ والأهم أنه يساعدنا على تفسير العامل العشوائي القوي في اختيار الأهداف ضمن عمليات «مكافحة الإرهاب». ونظرا لأهمية إبطال وعكس

الشعور بالعجز والعار (كنقيض للشعور بـ «الفوز والنصر»)، تمثلت الأولوية في مهاجمة أهداف مؤبلسة ضعيفة لا يمكن أن ترد الضربة وقمع أي معارضة لهذا المشروع المضلل. الأمر الذي يقربنا أكثر إلى التفكير بالسبب وراء حاجتنا إلى فهم محورية الشعور بالعار: فإذا كان محو الشعور بالعجز والعار هو الدافع الرئيس للولايات المتحدة وحلفائها، فسوف يكون أيضا باعثا مفتاحيا لأولئك الذين أغضبتهم هذه الهجمات. ولن يرجح أن يكونوا أكثر تمييزا في انتقائهم للأهداف، لأنهم أيضا لا يبالون بإغضاب معارضيهم وأعدائهم (بل كثيرا ما يحبذونه).

يمكن تقسيم معظم النقاش حول الحرب على الإرهاب إلى خطاب أولئك الذين يفترضون حسن النية والمقصد في الولايات المتحدة وبريطانيا والمؤسستين العسكريتين فيهما (وإن شابت النوايا الحسنة بعض الأخطاء والانتهاكات بين الحين والآخر)، وخطاب أولئك يفترضون وجود نوايا سيئة مبيتة (الأمر الذي أدى إلى ارتكاب انتهاكات بالجملة). لكن إذا أصاب جيمس غيليغان في أن العنف المتطرف مرتبط برغبة في الحفاظ على «احترام الذات»، فإن الإحساس المكثف برسالة الذات الأخلاقية قد يؤدي إلى تفاقم حدة العنف حين يتعرض مصدر احترام الذات هذا للتهديد.

ثبت أن حزب العمال الجديد بزعامة بلير هو حليف طبيعي لبوش ومشروع الاستئساد والترهيب للحصول على الموافقة والقبول، مع درء تهديد العار بالعدوانية المتجددة. أولا، كان حزب العمال الجديد حذرا على الدوام من اتهامه بـ«الضعف في شؤون الدفاع»، خصوصا منذ أن تعرض الزعيمان العماليان السابقان نيل كينوك ومايكل فوت للذم والطعن والتشنيع بسبب مواقفهما الأكثر راديكالية (مثلا:حول الأسلحة النووية). ثانيا، منذ مستهل ولاية بوش، صمم بلير ـ الذي بنى سمعته على الترويج لحزب العمال باعتباره آمنا ومحافظا على الصعيد المالي ـ على إثبات أن بمقدوره الانسجام مع رئيس جمهوري مثلما فعل مع كلينتون الديمقراطي(160). ثالثا،

تشير إيديولوجية حزب العمال الجديد («الفوز / الفوز») إلى أن بإمكانك (بالسحر!) مساعدة أفقر المواطنين دون زيادة الضرائب على أغناهم، وتوافقت هذه المنظومة الاعتقادية (بمساعدة النمو الاقتصادي، كما ينبغي علينا أن نقول) بكل سهولة مع إيديولوجية «الفوز / الفوز» القائمة على مبدأ «لا ضرائب جديدة، وخسائر الحد الأدنى في الحرب» الذي يسمح لك ظاهريا بالترويج لحقوق الإنسان والعدالة بثمن زهيد لا يذكر بالنسبة لك أو لغيرك. رابعا، شدد حزب العمال الجديد بكل عناد على الحاجة إلى العقاب والردع فيما يتعلق بالقانون والنظام على الصعيد الداخلي. وأعلن الحاجة إلى «الشدة في مواجهة الجريمة، ومواجهة أسبابها»، وسرعان ما ترجم ذلك إلى «الشدة في مواجهة الإرهاب، ومواجهة أسبابه» (رغم أن هذه الأسباب، خصوصا القضية الفلسطينية، همشت عموما من قبل بوش). خامسا، لحزب العمال الجديد نزعة واضحة نحو الاستئساد والترهيب: وهي مصممة للفوز، كما وصلت قيادته إلى السلطة حاملة رأيا مفاده أن الحرب ضد المحافظين تبرر الانضباط الداخلي الصارم والاستئساد على أعضاء البرلمان المخطئين. وليس من الصعب رؤية كيف لقيت الكارثة العراقية التشجيع من قبل رأي حزب العمال الجديد الراسخ بأن الفوز أهم من كل شيء، وأن التهديد والترهيب وسيلة شرعية للوصول إلى الغاية، وأن النصر بحد ذاته يبرر جميع التسويات والتنازلات المقدمة على طريق بلوغه. أما الحساسية تجاه الانتقاد فشكلت على الدوام سمة بارزة لحكومات بلير، واعتاد هو وكامبل لعب دور «الشرطي الصالح، والشرطي السيئ». سادسا، (وهذا يتصل بالاهتمام بالفوز)، اتضحت أهمية استغلال وسائل الإعلام والتلفيق ــ وتزايدت هذه الأهمية عند تجميع بعض الدعم لحرب العراق ــ بالنسبة لحزب العمال الجديد منذ البداية. وكان ذلك من جوانب عديدة بمثابة ردة فعل على بروز دور الصحافة في إضعاف الزعيم العمالي نيل كينوك في انتخابات عام 1992. وجسد تنسيق الدعم للحرب مجرد مثال مبالغ في تطرفه ولاأخلاقيته. أخيرا، ركز

بلير بؤرة الاهتمام، عبر سلسلة من المجالات السياسية، على النتائج والإيتاء، بدلا من النسق والعملية. لكن، وكما يلاحظ مايكل كوينلان، فإن العملية النسقية تعني الشمول والدقة، والتشاور والاستنصاح، والتشارك في الملكية، والشرعية ـ وكثيرا ما تفرز تأثيرا بالغا في النتائج[161].

وحتى في حالة اعتبار الدعم البريطاني قد ساعد في تقليص الشعور الأمريكي بالعار، فإن الشعور البريطاني بالعار تقلص نتيجة الشعور التقليدي بالاستعلاء والتفوق على «العم سام». وبالنسبة للعديد من البريطانيين، قدم التحالف مع الولايات المتحدة لا مجرد دفء القبول والاستحسان الأمريكي فقط، بل أتاح الفرصة أيضا لتقليص الشعور بالعار عبر مغايرة السلوك البريطاني مع السلوك الأمريكي. ومثلما لاحظت الصحفية جاكي اشلي، فإن وسائل الإعلام البريطانية صورت مرارا وتكرارا الجنود البريطانيين في العراق باعتبارهم أكثر ذكاء وفطنة من الأمريكيين، حيث بدا أنهم يتنزهون إلى الأبد بين العراقيين ـ على العكس من رعاة البقر الأمريكيين الذين يطلقون النار لأي استفزاز ويربضون خائفين مذعورين داخل عرباتهم المدرعة. وكما قال ضابط بريطاني: «خلافا للأمريكان، نحن نخلع خوذاتنا ونظاراتنا الواقية وننظر إلى العراقيين وجها لوجه»[162]. يمكن أن نرى في الموقف البريطاني سمتين تقليديتين لتجنب العار.أولا، نحن نطيع الأوامر فقط (من قادتنا، الأمريكان). ثانيا، نحن لا نصادق كلية على هذه التعليمات ونبذل ما بوسعنا لتقليص أضرارها. وكما يؤكد عالم الاجتماع ستانلي كوهين، يمكن للمبررات المتناقضة للعنف أن تتعايش جنبا إلى جنب[163].